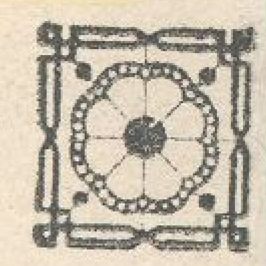
الدكتور عبد الحليم محمود

أوربا والإسلام



أوربّا والإسلام

بقلم

الدكتور عبد الحليم محمود

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى
يوم الدين .

مقدمة

بدأت فكرة هذا الكتاب تتسرب الى نفسى ـ بطريقة لا شعورية منذ عهد بعيد .

ففى اكتوبر عام ١٩٣٢ وصلت الى باريس ، وذهبت لصلاة الجمعة فى المسجد ، وما ان انتهت الصلاة ، حتى رأيت شخصا تلوح على وجهه سمات الطيبة يتجه نحوى ، ثم يسألنى :

هل انت مصرى ؟

ـ نعم .

ـ هل تعرف محمود بك سالم ؟

ـ لم يسعدنى الحظ بذلك .

ـ هيا اذن لأعرفك به .

وذهبت معه وقابلت السيد « محمود سالم » واحسست عند لقائه بالارتياح اليه والضيق به فى آن واحد : كانت نظراته كأنها انعكست انعكاسا تاما فى داخل نفسه ، واستقرت على أفكاره ، فهى ترى الأفكار وحدها دون نظر الى المخاطبين ، لم يكن حفيا فى تحيته ، لكنه قال بدون مقدمات ، وهو يمد يده بطريقة آلية : موعدنا الليلة فى المحطة الساعة الخامسة لنستقبل الأستاذ « خالد شلدريك » .

فأخذت أسائل نفسى : من هو « خالد شلدريك » ؟ ولم نستقبله ؟ وهل من الضرورى أن أذهب لاستقباله ؟

تلك أسئلة دارت بخلدى ولم أجد لها جوابا ، وكادت تعوقنى عن الذهاب ، ولكن حب الاستطلاع ، والشعور بالغربة ، الذى يدفع الى حب التعرف بالآخرين دفعانى الى الذهاب فى الموعد المحدد .

وجاء « خالد شلدريك » وكانت السيارات معدة ، فركبنا ، وكنا جمعا غفيرا ، ولكنى لم أكن أدرى الى أين نحن ذاهبون .

ووصلنا الى قصر فخم ، ونزل الركب ، واستقبلتنا سيدة انيقة فى صالون غاية فى الفخامة والأبهة .

لقد كانت – كما عرفت فيما بعد – أميرة سرواك ، احدى مقاطعات الهند ، أميرة انجليزية ، أسلمت وكتبت كتابا عن سبب اسلامها ، نشرته على نطاق واسع ، وفى هذا المجتمع الذى اختلفت الجنسيات فيه ، إدهشنى حقا : أن أرى كثيرين فيه ، أسلموا بعد أن ولدوا على ديانات أخرى ، وهم الآن مجتمعون لتحية خالد شلدريك ، الذى أسلم وكرس حياته لنشر الاسلام .

وبعد ان تناولنا الشاى خرجنا من جديد الى قاعة محاضرات فسيحة الأرجاء ، ألقت فيها الأميرة محاضرة عن الاسلام ، وكان عدد المستمعين كثيرا يتحدثون ويتناقشون ، وأدهشنى من جديد أن أرى كثرة الذين أسلموا حينما درسوا الاسلام .

أخذت منذ ذلك العهد ، أفكر فى العوامل التى جعلت هؤلاء يتخلون عن المسيحية ، والعوامل التى تدفعهم الى اعتناق الاسلام على الخصوص ، وهل هناك من وسيلة ناجعة لنشر الاسلام بين ربوع الغرب ؟

وصرفتنى الدراسة عن التفكير المستغرق فى هذا الموضوع ،

ومضت السنون ، وكلما فكرت فى الأمر صرفتنى شواغل واعمال اخرى .

الى أن كانت سنة ١٩٤٨ ، وكنت مع أحد العلماء الأمريكان ، نطوف بأرجاء الأزهر .. معهدنا العتيق ، وبينما نحن على وشك الخروج ، علمت أن بعض الأعضاء من لجنة الفتوى موجودون فى مكان اجتماعها ، فحدثته بأمر لجنة الفتوى ، فرغب فى أن يلقى هؤلاء الأعضاء ، فدخلنا الى القاعة ، فكان فيها المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم ، والمرحوم الشيخ العنانى ، وبعد التعارف والتحية خاطب العالم الأمريكى فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم قائلا :

ان الغرب الآن فى حالة روحية مضطربة متأرجحة ، ومن الممكن ان يتجه الى الاسلام ، ولكن من المحتمل أيضا أن يتجه الى صوفية الهند ، فهل أعد الأزهر ، أو الهيئات الاسلامية برنامجا لتوجيه الغرب نحو الاسلام ؟

وكان سؤالا مربكا ، ولكن فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم اجاب ، وفى أسلوب دبلوماسى لبق : اننا بصدد الدراسة والبحث .

وجعلنى سؤال العالم أعود من جديد الى التفكير فى موضوع الغرب والاسلام .

وصرفتنى الشواغل من جديد الى ان وقع فى يدى كتاب : « أيقاظ الغرب للاسلام » تأليف اللورد هيدلى ، وقرأت فيه :

« من عدة سنين خلت ، كان أحد أفكارى الرئيسية هو كيف يمكن للاسلام أن يتغرب « يصبح غربيا » ، حتى يمارس فى الأمم الأوربية ؟

وبعبارة أخرى كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعد انفسنا لنكتب ونفقه معنى الاسلام الحقيقى ، ثم تلا ذلك فكر آخر وهو كيف أننا لم نشك من جنسية المسيح الذى نعرف أنه كان آسيويا

محضا ؟ كانت امه العذراء مريم آسيوية ، وكان موسى وكل الأنبياء الموحى اليهم شرقيين ، وكان النبى محمد شرقيا مثل الآخرين ، وانزلت عليه الشريعة من الله .

فالقرآن من كلام الله ، عز وجل ، كما كان الانجيل وباقى الكتب المنزلة الأخرى ، والقرآن يثبت ويحقق الكتب المقدسة الأخرى ، والوحى السابق » .

كيف يمكن للاسلام أن يتغرب على حد تعبير اللورد ، ذلك هو ما أردته ، وما أردت أن اثير التفكير فيه .

لقد كتب الكاتبون كثيرا فى علاقة الشرق بالغرب سياسيا ، وكتبوا فى علاقة الشرق بالغرب اقتصاديا ، ولكن التفكير فى صلة الشرق بالغرب ، دينيا ، واحتمال نشر الدعوة الاسلامية بين ربوع الغرب لم يسترع عناية الباحثين الى الحد الذى يتناسب مع جلال الموضوع وخطره .

وهذه الصفحات التالية تهدف الى اغراض منها :

أن يشعر المسلم بعزة وفخار لأنه مسلم ، وان يعرف فى شىء من الوضوح أن الاسلام فى العهد الحاضر هو الدين الوحيد الذى يعد حقا دينا عالميا .

وتهدف من قبل ذلك ومن بعد ذلك الى تبيين واجب المسلم نحو هذا الدين ، سواء كان من ناحية تحقيقه نقيا صفيا فى نفسه ، أو كان من ناحية الدعوة اليه ونشره والله الموفق .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا » .

الفصل الأول

الإسلام والمسيحية.

جلست السيدة حنه ، وعلى وجهها سمات الاهتمام والحزن ، ونظراتها معلقة بطائر يحنو على فرخه ويطعمه . وأخذ خيالها يمرح ، يسرح عبر هذه السنين التى تقضت من عمرها الذى لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون ويمرحون ، ويملأون البيت حبا ، وضجيجا حبيبا ، ومودة وفرحة :

انها حياة جدباء ، تلك التى لم تملأ جنباتها البهجة بالأولاد : على هذا النسق كان يدور خيالها وعيناها ممتدتان الى الطائر يطعم فرخه فى حنان ومداعبة .

استمر خيالها يسير مع هواها ، واستمر شعورها بالرغبة فى الولد يقوى ويتركز ، واذا بها فجأة تسيل دموعها ، وتتجه الى الله ضارعة فى حرارة داعية فى شوق ولهفة ، أن يهب لها ولدا ، وقالت :

« اللهم لك على ان رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس » .

يقول ابن اسحاق :

« كان السبب فى نذرها انه أمسك عنها الولد حتى أسنت »

واستجاب الله دعاءها ، فلما شعرت بالحمل ، اتجهت الى الله فى شكر وفى عرفان ، تؤكد من جديد نذرها ، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله :

« اذ قالت امرأة عمران : رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى ، انك أنت السميع العليم » .

وعمران الذى ذكرته الآية الكريمة ، ليس بعمران أبى موسى ، وبين موسى وعيسى ، بون شاسع من الزمن .

وأما قولها فى الآية الكريمة : « محررا » فمعناه « معتقا » ، وهى تقصد بذلك انه معتق من أن يكون عبدا للدنيا ليعبدك وحدك . يقول الزجاج :

كان على أولادهم فرضا أن يطيعوهم فى نذرهم ، فكان الرجل ينذر فى ولده أن يكون خادما فى متعبدهم(١) .

لقد سعدت السيدة حنة بهذا الحمل فهى تفكر فى هذا الجنين فى سعادة ، انها تفكر فى صورته وتفكر فى تنشئته ، وتفكر فى تربيته وثقافته كما تفكر فى بسماته ، وفى مداعباته ، وما كان خيالها يسرح مطلقا فى جو هذا الجنين على انه أنثى ، وانما كان يسرح باستمرار — فى جوه — على انه ذكر ، ها هو ذا قد أصبح شابا ذكيا ، فتيا يأخذ مكانته بين فقهاء المعبد وسدنته ، بين المسيرين لدفة الأمور الدينية والموجهين لها ، ثم ها هو حبر من كبار الأحبار له الكلمة المسموعة ... و ... و ...

وجاء أوان الوضع ، وفوجئت السيده حنه ، مفاجأه لم تكن متوقعة .

لقد كان المولود أنثى .

ارتبكت السيدة حنـة لحظة من الزمن ، وفكرت فى نذرها ، وفكرت فى المقادير وفى سرعة اتجهت الى الله تعالى وكأنها تعتـذر أو تستغفر قائلة :

« رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (١) »

اما مريم هذه التى يحرص المفسرون على بيان أنها ليست مريم أخت موسى ، فان الله سبحانه أضفى عليها عنايته وشملها برعايته ، ويعبر سبحانه عن ذلك فيقول :

---

(١) يقول القاضى أبو يعلى : والنذر فى مثل ما نذرت ، صحيح فى شريعتنا ، فانه اذا نذر الانسان أن ينشىء ولده الصغير على عبادة الله وطاعته ، وأن يعلمه القرآن ، والفقه وعلوم الدين : صح النذر .

(١) آل عمران آية : ٣٦ .

« فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا » (٢)

أما من ناحية كفالتها فقد تولى ذلك زكريا ، وكان لذلك قصة :

قال السدى :

انطلقت بها أمها فى خرقها ، وكانوا يقترعون على الذين يؤتون بهم ، فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ :

« أنا أحقكم بها ، عندى أختها ، فأبوا ، وخرجوا الى نهر الاردن ، فألقوا أقلامهم التى يكتبون بها ، فجرت الأقلام ، وثبت قلم زكريا ، فكفلها .

قال ابن عباس :

كانوا سبعة وعشرين رجلا ، فقالوا : نطرح أقلامنا ، فمن صعد قلمه مغالبا للجرية فهو أحق بها ، فصعد قلم زكريا ، فعلى هذا القول كانت غلبة زكريا بمصاعدة قلمه .

وعلى قول السدى : بوقوفه فى جريان الماء .

وقال مقاتل :

كان يغلق عليها الباب ، ومعه المفتاح ، لا يأمن عليه أحدا ، وكانت اذا حاضت ، أخرجها الى منزله تكون مع أختها أم يحيى ، فاذا طهرت ردها الى بيت المقدس .

والأكثرون على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة . ا هـ

وأخذت الطفلة تشب وتترعرع فى كفالة زكريا .

فلما بلغت السن التى تستطيع فيها الخدمة ، أخذت بتوجيه زكريا عليه السلام ، تعمل فى المعبد توفية لنذر أمها ، وتتعبد فيه ، انها عاملة عابدة .

واتخذت مريم عليها السلام محرابا ، قال الأصمعى : والمحراب ها هنا : الغرفة . والمحراب فى اللغة : الموقع العالى الشريف كما يقول الزجاج :

---

(٢) آل عمران آية : ٣٧ .

اتخذت مريم عليها السلام محرابا تعتكف فيه متعبدة متهجدة .

وكان زكريا عليه السلام ، يدخل عليها من آن لآخر محرابها ، رعاية لها ، وعناية بها وتفقدا لأحوالها ، فكان ــ على دهشة منه ــ يجد عندها رزقا : ويعبر القرآن عن ذلك فيقول :

كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا .

قال يا مريم : أنى لك هذا ؟

قالت : هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » (١)

وتزكت مريم عليها السلام بالعبادة ، وصفت نفسها ، ورق شعورها ، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة .

ورؤية الملائكة ومخاطبتهم أمر أقره القــرآن الكريم ، ان الله سبحانه وتعالى يقول :

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن

---

(١) يقول صاحب محاسن التأويل : « فى الآية دليل على وقوع الكرامة لاولياء الله تعالى ، كما وجد ، عند خبيب بن عدى الانصارى رضى الله عنه ، استشهد بمكة ، قطف عنب . كما فى البخارى ، وفى الكتاب والسنة لهذا نظائر كثيرة .

ومن اللطائف هنا ما نقله الامام الشعرانى فى (اليواقيت) عن العارف بالله أبى الحسن الشاذلي قدس سره أنه قال : ان مريم عليها السلام ، كان يتعرف اليها فى بدايتها بخرق العوائد بغير سبب تقوية لايمانها وتكميلا ليقينها ، فكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . فلما قوى ايمانها ويقينها ردت الى السبب لعدم وقوفها معه ، فقيل لها : وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبــا جنيا » اهـ .

اما عن قصة خبيب وقطف العنب فقد رواها الامام البخارى فى حديث صحيح جليل ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الانصارى ، جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى اذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ذكروا لحى من هزيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبا من مائتى رجل كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة فقالوا : هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا الى فدفد وأحاط بهم القوم فقالوا لهم انزلوا واعطونا بأيديكم

ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » (١)

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرى الملائكة ، ويتحدث معهم ، ولا يراهم من بجواره .

والامام الغزالى — عن تجربة — يقول :

« ان السالكين فى ابتداء الطريق حينما تصفو نفوسهم ، وتتزكى يرون الملائكة » (٢) .

ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدا ، فقال عاصم بن ثابت أمير السرية ، أما أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما فى سبعة ، فنزل اليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الانصارى وابن دثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم ان فى هؤلاء لاسوة يريد القتلى فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم ، فأبى فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد موقعة بدر ، فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرنى عبيد الله بن عياض ، أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته . فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب فى وجهى . فقال : تخشين أن أقتله ، ما كنت لافعل ذلك ، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده وأنه لموثق فى الحديد وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول انه لرزق من الله ، رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحل ، قال لهم خبيب : ذرونى أركع ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين . ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتها ، اللهم أحصهم عددا :

ما أبالى حين أقتل مسلما — على أى شق كان لله مصرعى

وذلك فى ذات الاله وان يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرىء مسلم ، قتل صبرا ، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم وما أصيبوا وبعث ناس من كفار قريش الى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرف وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطع من لحمه شيئا » فتح البارى بشرح صحيح الامام البخارى ج ٦ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(١) فصلت : ٣٠ — ٣٢ .

(٢) أنظر طبعتنا للمنقذ من الضلال .

تركت مريم ، وبدأت ترى الملائكة ، وبدأت الملائكة تتحدث اليها ، وتسدى اليها النصيحة وتوجهها الى طريق الحق ، وطريق الطاعة ، يقول سبحانه :

« واذ قالت الملائكة يا مريم : ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » (١) .

قال ابن عباس والحسن وابن جريج :
اصطفاها على عالمى زمانها . قال ابن الأنبارى :
وهذا قول الأكثرين :
وبعد أن أثنت عليها الملائكة : هذا الثناء الجميل ، قالت :
« يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » (٢) .
ثم يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه وحبيبه وصفيه ومصطفاه :
« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون » (٣) .
وتعود الملائكة الى مريم تتحدث اليها ، ولم تكن فى هذه المرة موجهة أو آمرة ، وانما تزف اليها بشرى مذهلة :
« يامريم ، ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » (٤) .
يقول صاحب زاد المسير :
« وفى المراد بالكلمة هاهنا ثلاثة أقوال ، أحدها :
أنه قول الله له : « كن » فكان ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

---

(١) آل عمران آية : ٤٢ .
(٢) آل عمران آية : ٤٣ .
(٣) آل عمران آية ٤٤ .

والثانى : انها بشارة الملائكة مريم بعيسى ، حكاه أبو سليمان .

والثالث : أن الكلمة اسم لعيسى ، وسمى كلمة ، لأنه كان عن الكلمة .

وقال القاضى ابو يعلى :

لأنه يهتدى به ، كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى » .

ثم تحدثت الملائكة الى مريم عن صفة هذا الذى بشرتها به فقالت عنه :

« وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين » (١) .

فوجئت مريم بذلك فقالت فى تعجب واستفهام :

« رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ » .

وكانت اجابة جبريل عليه السلام لها حاسمة ، واضحة :

« قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » .

واستمرت الملائكة فى ذكر بركات الله عليه فقالت :

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسولاً الى بنى اسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى باذن الله ، وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين .

ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ، ان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » (٢) .

---

(١) آل عمران من الآية : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) آل عمران آية : ٤٨ ــ ٥١ .

وإذا تأملنا قليلا فى النص الالهى وجدنا أن عيسى عليه السلام يقول :

انه يفعل ما يفعل باذن الله ، ومعنى ذلك أنه ليس له من نفسه القدرة على الخلق ، أو الابراء ، وانما ذلك كله « باذن الله » .

ويقـول :
انه رسول الى بنى اسرائيل .
وانه مصدق لما بين يديه من التوراة .
ويختتم بقوله :
« ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .
ونعود الى مريم عليها السلام من جديد .

لقد كنا مع مريم ، وعيسى ، عليهما السلام ، من خلال سورة آل عمران ، والآن نصاحبهما من خلال سورة مريم التى ذكرت بعض تفاصيل لم تكن فيما مضى ؛

يقول الله سبحانه وتعالى :

« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا ، قالت :

انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيـا ، قال : انما أنا رسـول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا قال : كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ، فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ، قالت ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى ، واشربى ، وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا ، فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا ، فأتت به

قومها تحمله ، قالوا : يا مريم .لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت اليه ، قالوا كيف يكلم من كان فى المهد صبيا ، قال : انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أين ما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا ، ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له : كن فيكون ، وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » (١) .

أرأيت الى هذا التكريم الذى أحاط الاسلام به مريم عليها السلام ، وعيسى عليه السلام ؟

انهما فى التكريم السامى الذى انزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين .

وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه ، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة ، ويتهمونها بالزنا ، اذا بالقرآن ، وبالجو الاسلامى كله ، قديمه وحديثه ، يعتبرها قديسة صديقة .

وبينما ينكر اليهود على عيسى ، عليه السلام ، نبوته ، ويرمونه بالكذب ، اذا بالاسلام يعترف بنبوته ، وبأنه عبد الله ورسوله ، وبأنه مبارك ، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة .

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان ، مجرد وجود المسيح عليه السلام اذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده ، وعللوا المسيح والمسيحية ، بأنهما من اختراع القديس بولس ، وأن المسيح ليس الا أسطورة لم يقع لها وجود الا فى خيال القديس بولس ، اذا بالاسلام يوجب على اتباعه ، وجوبا حتميا ، الايمان بعيسى عليه السلام ، نبيا ، ورسولا ، ومباركا ، ووجيها فى الدنيا والآخرة .

عيسى ؟

---

(١) سورة مريم آية : ١٦ ـ ٣٦ .

انه جزء من ايماننا نحن المسلمين : نبى ، معصوم ، مبرأ من المعصية ، وأمه صديقة ، اصطفاها الله وطهرها ، واصطفاها على نساء بنى اسرائيل .

من هذا الأساس ننطلق ونسير فى هذا الكتاب ، تسير بحسب واقع بالفعل : أى أننا نصور واقعا لانخترعه ، ونكتب عن حقائق لم نبتدعها ، ونخط صفحات ناشئة عما حدث بالفعل ، والله نرجو أن يهدى لها ، وأن يهدى بها ، وأن يفتح لها قلوبا ، ويرشد بهـا عقولا ، ويجعلها فى ميزان حسناتنا ، انه سميع قريب مجيب .

الفصل الثانى

أوربـّـا .. والمسيحيّة

سجل التاريخ فى صورة واضحة ، مآسى محاكم التفتيش ، وما كانت تقوم به من احراق بالنار ، ورمى فى الزيت المغلى ، واخراج للأظافر ، وتقطيع لأجزاء الجسم قطعة قطعة : زيادة فى العذاب ومضاعفة للآلام .

وسجل الأثر الأخلاقى الذى غمر الانسانية فى أوربا من جراء هذه المحاكم :

فقد عم الرياء والنفاق ، خوفا على الأموال والأرواح ، وانتشر الكذب والمداهنة بصورة لامثيل لها ، ووقر فى أذهان الناس أن العدالة خرافة من الخرافات ، وأسطورة من الأساطير : ذلك أن شعار محاكم التفتيش ، كان سماع الاتهام ، وعدم الاصغاء الى الدفاع .

وكان المقرب الى هذه المحاكم هو الذى يتهم الآخرين ، بل هو الذى يكثر من اتهام الآخرين .

كانت فترة هول يشيب لها الأطفال ، وكانت باسم الدين ، وعن رجال الدين .

وحدثنا التاريخ أن نفوذ محاكم التفتيش تخطى أوربا ، وعبر البحار ، وتغلغل مع الفاتحين الأسبان فى ربوع أمريكا ، لأول عهدها بالغزو والفتح : وكانت الفظائع التى ارتكبت هناك ، سواء من الفاتحين ، أو من رجال الدين ضد الهنود الحمر ، لا تعد ولا تحصى ،

واذا كان ضمير رجل الكنيسة قدر له أن يهمس أحيانا نادرة ، بأن الأوربيين مواطنون ومسيحيون ، فانه لم يكن يهمس بالنسبة للهنود الحمر : لذلك كان التنكيل بهم أشد ، والعذاب الذى يصب عليهم أنكى وأفظع .

سجل التاريخ كل هذا فى كتب لايحصيها العد . ولم يقتصر التصوير على الكتب ، وانما تعداها الى القصص الذى وجد ميدانا خصيبا فى المآسى العنيفة التى ارتكبت باسم الدين .

ومن القصص التى صورت ذلك خير تصوير : القصة الخالدة التى ترجمت الى اللغة العربية باسم « فارس قصطلة » ، وكان الأولى أن تترجم باسم « فارس قشتاله » .

ومهما يكن من شيء ، فان هذه القصة صورت المأساة تصويرا بارعا ، سواء فى جانبها الأوربى ، أو فى جانبها الأمريكى ، وقد ظهرت هذه القصة فى السينما ، فوجهت الأذهان توجيها قويا نحو الربط بين المسيحية والتنكيل بالانسانية .

وسجل التاريخ أيضا ذلك الصراع العنيف بين المسيحية ، ورجال العلم ورجال الفكر الحر ، وليست مأساة « جاليليو » بالحادث الوحيد .. فالكثير من رجال العلم والفكر احرق أو شنق ، أو زج به فى أعماق السجون ، وكل ذلك باسم الدين ..!!!

وتنفس الناس الصعداء فى عصر النهضة التى كانت ثمرة لجهاد أحمر : أريقت فيه الدماء ، وتيتمت فيه الأطفال ، وازهقت فيه النفوس .

وكانت النهضة تحررا من السيطرة الطاغية : كانت تحررا من سيطرة الملوك والأمراء ، وكانت تحررا من سيطرة التقاليد والعادات ، وكانت ــ أيضا ــ تخلصا من سيطرة رجال الكنيسة والكهنوت .

لقد فقدت الكنيسة سيطرتها الطاغية منذ بدء النهضة ، ولكنها كانت تعمل دائبة لاعادتها .

وأتى القرن الثامن عشر ، والكنيسة تحلم باعادة سابق سيطرتها على العالم الأوربى ، وتسعى جاهدة ، لاسترداد مافقدته من سلطان على الضمائر والنفوس والقلوب ، وشعر كبار الكتاب بالخطر يتهدد الانسانية فى صورة محاكم التفتيش فحمل « فولتير » و « روسو » وغيرهما ، حملة شعواء على رجال الدين المسيحى ، وتخطت حملتهم رجال الدين الى المسيحية نفسها ، فأخذوا يقوضون قيمها ، ويهدمون بمعاول من فولاذ ، بيد أن أبحاثهم

ـ وان كانت تستهوى الأديب ـ لبلاغة الأسلوب ، وجمال التعبير ، وقوة المنطق ، الا انها لم تكن تتسم بالصورة العلمية الحقيقية ، وكانت تبدو ، عند المتمعن ، كأنها ثأر ثائر لايبالى ، فى سبيل الغاية ، بالوسائل التى يسلكها ، ومن أجل ذلك كانت أبحاثهم متفاوتة القيمة : فيها الضعف ، وفيها القوة وفيها الحقيقة ، وفيها الوهم ، ولكنها ـ على كل حال ـ نالت من قدسية المسيحية ، وعبدت الطريق للنقد العلمى .

بدأ اذن ، النقد العلمى فى القرن التاسع عشر ، وبدأ متسلسلا ، ثم أخذ يتغلغل شيئا فشيئا ، حتى اذا كان أواخر القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين ، شمل النقد المسيحية من جهة عقيدتها ، ومن جهة كتبها المقدسة .

كتب « رينان » عن المسيح عليه السلام ، كتابا يثبت فيه « أن السيد المسيح لم يكن الها ، ولا ابن اله ، وانما هو انسان يمتاز بالخلق السامى ، وبالروح الكريمة » .

واذا قوضت فكرة : المسيح الاله ، أو المسيح ، ابن الاله ، فقد انهارت المسيحية الحالية من اساسها (١) .

ولكن « رينان » لم يكن متطرفا فى حكمه ، فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجودا تاريخيا حقيقيا .

وما كان من المعقول قط : أن يؤمن رينان ، ذو العقلية الصارمة ، بألوهية المسيح ، أو بالتثليث ، أو بالخلاص ، بالطرق التى توجبها الكنيسة ، والحمد لله ، أن آمن بوجود المسيح كحقيقة تاريخية .

ولكن آخرين أخذوا ينقبون فى بطون الكتب ، ويتتبعون الروايات ، ويغربلون الوثائق ، فانتهوا الى عدم الاطمئنان لوجود المسيح وجودا تاريخيا ، ورأوا أن المسيح : أسطورة .

---

(١) آراء يقصد المستشرقون منها المسيحية فى أوربا حيث البيئة التى نشئوا فيهـا .

ولقد اشترك الأستاذ « بابيه » أستاذ علم الاجتماع فى جامعة « السربون » مع زميلين له فى تأليف كتاب ينحو هذا النحو الأخير .

واثبت الأستاذ « بابيه » أن السبب الرئيسى ، بل السبب الوحيد الذى جعل « الامبراطور قسطنطين » يتخذ المسيحية دينا رسميا . انما هو ما رآه فيها من التعصب الذى لا يوجد فى غيرها من الأديان التى كانت منتشرة اذ ذاك فى روما ، ورأى أن هذا التعصب نفسه هو الذى سيربط الامبراطورية برباط من حديد ، فيكون ذلك مقاوما لعوامل التفكك التى تسرى فى شرايين الامبراطورية .

لقد ابتأس الامبراطور حينما رأى التفكك والانحلال يسرى فى امبراطوريته المترامية الأطراف ، وأخذ يفكر فيما يمكن أن يربط هذه الأشلاء التى توشك أن تتداعى .

ونظر فى الاديان الموجودة فوجدها ثلاثة أديان متعادلة ، كل منها يصارع الآخر ليصرعه ، ولم يكن نظره فى هذه الاديان للهداية والرشد النجاة فى العالم الاخروى ، وانما كان ينظر فى الاديان ليرى أيها أشد تعصبا وأشد تهيؤا واستعدادا للتنكيل بالمخالف ، فرأى أن المسيحية يتوافر فى رجالها ذلك ، فاختارها دينا رسميا للدولة من أجل هذا السبب فحسب .

أما احد زملاء « بابيه » فقد كتب فى الكتاب نفسه ، قائلا ان المسيح ، عليه السلام : أسطورة لا حقيقة لها .

وكتب الزميل الثالث موضوعا لا يقل خطورة عن ذلك ، وقد وجد من علماء تاريخ الأديان أى النصف الاول من القرن العشرين ، علمان من أعلام الباحثين ، أحدهما : الأستاذ « لويس » وقد تخصص فى كتب العهد القديم ، واثبت بالطريق العلمى الصحيح ، أن هذه الكتب نالها التحريف .

أما الآخر ، وهو الاستاذ « جنى بير » فقد كان أستاذا لتاريخ

الاديان بجامعة « السربون » الى عهد قريب ، ولابحاثه شـــهرة عاليـــة .

وقد كتب كتابا ضخما عن العصر الذى نشأ فيه المسيح ، عليه السلام ، وكتب كتابا آخر فيما يقرب من خمسمائة صفحة عن المسيح نفســه ، وكتب كتابا ثالثا عن تطور العقائد ، ورابعا فى جزئين عن المسيحية القديمة ، ومسيحية العصور الوسطى ، والمسيحية الحديثة .

وقد أثبت فى كل هذه الكتب ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن المسيحية الحالية ليست هى مسيحية المسيح ، بل ولا تمت الى مسيحية المسيح بصلة ، اللهم الا الصلة الاسمية .

وقد تتبع المسيحية الحالية : كيف نشأت منفصلة عن المسيح ، ثم كيف تطورت الى أن أصبحت فى الوضع الحالى ، وبين فى وضوح لا لبس فيه ، أثر القديس « بولس » على المسيحية ، والقديس « بولس » هذا : أمره غريب ، وحالته النفسية لم تتضـــح كل الوضوح للآن .

لقد كان يهوديا متعصبا لليهودية يصارع خصومها فى عنف ، ويستعمل كل نشاطه وحيويته فى تثبيت دعائمها ، ثم كان وثنيـــا شديد التعصب للوثنية .

وذات ليلة ــ بينما كان مسافرا ــ زعم أنه رأى المسيح ، والنور والاشراق ، وأنه اهتدى الى المسيحية ، وركز حيويته الجارفة أيضا فى تدعيمها ، ولكن كيف أن المسيح لم يدع أنه آت بدين جديد مستقل عن دين موسى ، وانما أتى ــ حسب ما يقول ــ لاصلاح ما أفسده اليهود فى دين موسى ، وتلك فكرة لا تجعل لديانة المسيح أصالتها ، وبالتالى لا تروق للقديس بولس ، فأخذ يخترع ، وينظم ، وينسق ، الى أن أقام مسيحية تدين له أكثر مما تدين للمسيح (١) .

---

(١) هذا رأى المستشرق .

لقد اثبت الأستاذ جنى بير أن المسيحية الحالية انما هى فى اغلبها الاعم : مدينة للقديس بولس ، وأثبت أن المسيح كان ـ على الخصوص ـ متجها الى اذاعة ونشر بعض القواعد الاخلاقية التى كانت تحتاجها البيئة اذ ذاك .

لقد كانت بيئة متحجرة لا تنبض القلوب فيها بقطرات من الرحمة أو الاشفاق .

لقد كانت البيئة اليهودية على اسوأ ما يمكن أن تكون عليه اليهودية .

وأتى المسيح مبشرا بالرحمة ، والاشفاق ، والتعاون ، والمحبة .

اما التثليث ، واما فكرة الالوهية التى تمشى على الارض متمثلة فيه ، أو البنوة للاله ، أما هذه العقائد المعقدة التى لا يستسيغها عقل ، ولا يطمئن اليها فؤاد . فقد كانت حسبما يرى الاستاذ جنى بير ، بعيدة كل البعد عن رسالة المسيح .

وبالطبع حرمت الكنيسة كتبه ، وطردته من ملكوت السموات . وكانت كتبه عن المسيحية تدرس بقسم تاريخ الاديان بالجامعة ، وقد حضرناها عليه شخصيا ، وامتحننا هو فيها .

كل هذه العوامل بعثت الشك فى نفوس هؤلاء الذين كانوا ، من سعة الأفق بحيث لم يقتصروا فى قراءتهم على الكتب التى لا تحرمها الكنيسة .

واذا زلزل الشك عقيدة معينة ، فان الشاك يتطلع الى غيرها وقد اتجه بعض من عصف بهم الشك الى الاسلام فأسلموا ، واعتصموا بدين الله خاتم الاديان .

ولكن ليس من الغريب أن يتطلع بعضهم الى غير الاسلام ، ما الذى يمنعهم من الدخول فى الاسلام زرافات ووحدانا ؟

الفصل الثالث

الغرب والإسلام

اذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يمنع الغربيين من الدخول في الاسلام زرافات ووحدانا ؟

ان الاسلام واضح جلى ، وان تعاليمه سهلة ميسورة ، تنسجم مع العقل والمنطق ، فما السر فى عدم أخذ الاوربيين بهذا الدين ، وعدم اعتناقهم له فى سرعة سريعة ، وفى كثرة هائلة ؟

الواقع أن العوامل التى تمنع الأوربيين من اعتناق الاسلام كثيرة قوية ، ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع الى المسلمين انفسهم ، ولنتحدث أولا عن العوامل الخارجية عن الاسلام والمسلمين .

١ ـ وأول هذه العوامل هى الكنيسة :

لقد أتقنت الكنيسة فن النظام ، فلا ارتجال فيها ، كل شىء فيها معد مرتب منسق ، قد بحث عن روية ، وأعد اعدادا تاما .

وكان مما أعدته مشروعان كبيران ، أحدهما : للتبشير . والثانى لصد الهجوم عن الديانة المسيحية .

أما فيما يتعلق بالتبشير ، فانه من الاوليات عندها ، أن يعرف المبعوث لغة المرسل اليهم ، ويدرس عاداتهم ، وتقاليدهم ، وديانتهم ، ومواطن الضعف فيهم ، والوسائل التى تجذبهم ، وأن يعلم فضلا عن ذلك ، بعض مبادىء الطب ، ويعلم قبل ذلك وبعده كيفية الهجوم على الديانة المتوطنة . وكيفية الدعوة للديانة المسيحية ، أما المشروع الآخر وهو الذى يعنينا على الخصوص هنا ، فهو على الخصوص يتركز فى دراسة مستمرة متجددة فى أحدث الوسائل لتشويه ديانات الآخرين لدى المسيحيين انفسهم وقد برعوا فى نشر الاضاليل على كل دين غير المسيحية .

وما نشر من أضاليلهم عن الاسلام لا يحصر ولا يعد ، انها أضاليل تنشر متتابعة متكررة ، تتردد فى صور مختلفة ، وينتهى بها التكرار والترديد الى ايمان من تنشر عليهم بها ، وتبلغ بهم الصفاقة الى أن

يعكسوا الحقائق عكسا تاما ، فالدين الاسلامى مثلا ، وهو دين التوحيد الخالص ، ودين التنزيه التام ، يشيعون عنه أنه دين عبادة الاوثان ..

ويكررون ذلك فى مختلف الأمكنة والأزمنة ، وينتهى المسيحيون بالاعتقاد بأن هذا الدين انما هو : عبادة الاوثان .

وهكذا تسير الدعاية تضليلا ، وتشويها وعكسا للحقائق ..

ومن أهم الوسائل أيضا لتحصنين المسيحية ما يسمونه نظام الحرمان من الدين المسيحى ، وهو نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرم قراءة أى كتاب ترى فيه خطرا على المسيحية سواء كان هذا الكتاب هجوما عنيفا على المسيحية ، أو دعاية بارعة للاسلام ، أو حتى نمطا ممتازا من الدعاية القوية لسعة الافق وتحرير الفكر .

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق فى شأن كثير من الكتب المتازة ، واستعملت هذا الحق أيضا فى شأن كثير من الكاتبين ، وكان موقفها من كل كاتب لا يمكنها أن تستولي عليه ، بوسيلة الرغبة أو بوسيلة الرهبة ، أن تحرم قراءة كتبه ، وأن تحرمه هو من رحمة السماء .

عند الكنيسة اذن : الرغبة والرهبة ، عندها المال ، وعندها الحرمان .

٢ — على أن الاسباب التى ترجع الى المسلمين ، لا تقل خطرا عن الكنيسة .

ان اية دعوة مهما كانت من السمو لا يمكن أن تجتذب اليها الأنصار الا اذا كان لها دعاية وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث مكانا يجعلها فى الدرجة الأولى من الأهمية .

ويعرف ذلك المسلمون ، يعرفه تجارهم ورجال الأحزاب منهم ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنهم لا يعملون به فيما يتعلق بنشر الاسلام .

اين دعاتنـــا فى الشرق أو فى الغــرب . أين مبعــوثونا . أين الدعاة منا ؟

لا شيء من ذلك مطلقا ، ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ، ومبعوثى الازهر الى الاقطار الخارجية : انما بعثوا لتعليم الحساب والخط والاملاء واللغة العربية فى مدارس اسلامية ابتدائيـــة أو اعدادية أو ثانوية ، ليس لنا فى الخارج قط مبعوثون ، واذا كان الدين الاســلامى ينتشر فانما ينتشر بقوته الذاتيـــة ، رغم الهجوم عليه ، ورغم العقبات التى تعترض طريقه .

ولنقارن ذلك كله بالارساليات التبشيرية ، ومن أمامها ومن خلفها المستشفيات ، والملاجىء ، والمدارس ، والمعاهد ، والمال يغدق ، والوظائف تهيأ ، ولنتصور كفتى ميزان احداهما لا شيء فيها وتلك هى كفة المسلمين بالنسبة للاسلام ، والأخرى فيهـــا كل شيء ، وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية .

وسبب ثان تحدث عنه جمال الدين الافغانى ، وكان يرى أنه أقوى الأسباب ، ذلك هو حالة المسلمين .

وكثيرا ما قال جمال الدين : ان الغربيين يستمدون فكرتهم عن الاسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فانهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء اذلاء مستكينين ، فرقت بينهم الأهواء والشهوات ، وقعدت بهم الصغائر ، وانصرفوا عن عظائم الامور ، وأصبحوا مستعبدين مستذلين ، ولو كان الاسلام دينا قويا لما كان المسلمون هكذا . .

ينظر الغربيون الى المسلمين فى العصر الحاضر ، وينســـون شيئين :

ينسون أن المسلمين فى العصر الحاضر غير مستمسكين بالاسلام ، وتكاد الصلة التى بينهم وبينه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالاسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم .

ولعل المسلمين يعودون الى دينهم صافيا نقيا ، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الاسلام قويا ساميا .

وآداب الاسلام حقيقة كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلا قويا مهذبا كريم النفس ، ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن الاسلام .

ولنتخذ مثلا بسيطا ، مسألة النظافة .. لقد دعا الاسلام الى النظافة دعوة لم يدعها دين من الاديان ، ولم يدعها مذهب من المذاهب قديما أو حديثا ، ولكن اذا نظرنا الى الاقاليم الاسلامية أو الى الاحياء الاسلامية ، وقارناها بالاقاليم ، أو الاحياء الاخرى ، نجد الفرق واضحا ، سواء كنا فى مصر ، أو فى تونس ، أو فى مراكش أو فى غير ذلك من البلدان .

ونأخذ مسألة أهم من ذلك ، مسألة اتحاد الامم الاسلامية .

فقد دعا اليها الاسلام فى صور لا حصر لها ، وبأساليب لا حد لتنوعها ، مهددا متوعدا تارة ، مرغبا محببا تارة أخرى ، متحدثا عن الثمرات المادية والدنيوية للاتحاد ، ومع ذلك فقد كان كل ذلك صرخة فى واد ، وكأن المسلمين عن الاتحاد صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

وخذ آداب الاسلام واحدا فواحدا ، وانظر الى حال المسلمين .

هل تجد توافقا ، وانسجاما بين المسلمين والاسلام !

يقول جمال الدين :

« اذا أردنا أن ندعو للاسلام ، فليكن أول ما نبدأ به أن نبرهن للغربيين أننا لسنا مسلمين » .

وسبب ثالث لعدم انتشار الاسلام آت من المسلمين انفسهم ...

أيضا ، وذلك هو .. عرض الأسلام وكتب المسلمين انفسهم ...

منذ سنوات جاء أحد الأمريكان ليمكث فى مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الاسلام ، واتصل بالهيئات التى تمثل الاسلام ، فبلغت الحيرة منتهاها حينما ارادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الاسلام .

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن الى كتب علم الكلام ، فهى كتب الدفاع عن العقيدة .. ولكن اذا نظرنا فى كتب علم الكلام نجد أنها جدال لا ينتهى بين الذين يبحثون فيه ، بالزيغ . وابتغاء الفتنة ، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولا ينتهى .

ثم هى تصور - على الخصوص - المستوى الثقافى للعصور الوسطى ، ولا تمت بصلة الى الابحاث الحديثة . ومن الطبيعى أن تكون كذلك لأنها ألفت فى العصور الماضية ، وما ألف منها حديثا ، ألف على نمطها اتباعا للآباء والأجداد ، وبغضا للخروج عن المألوف .

واذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام فهل نأخذه من كتب التفسير !!

لقد انتهى تفسير القرآن الى أن أصبح مسرحا يتبارى فيه النحويون واللغويون وبلاغيو العصور المتأخرة ، وغشت هذه النواحى على الهداية لما أنزل الكتاب من اجله أى الهداية للأقوام .

واذا كانت كتب الكلام قد استفاضت فى الحديث عن القدر ، مع نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم نهيا صريحا عن الحديث فيه ، واذا كانت قد استفاضت فى الحديث عن صلة الذات الالهية بالصفات اذ أنه محاولة لاكتناه الذات الالهية التى نهينا عن التفكير فيها ، وأمرنا بالتفكير فى آثارها ، واذا كانت كتب الكلام قد تعرضت لذلك دون جدوى ولا ثمرة ، فان كتب التفسير أيضا قد تعرضت لهذه المشاكل نفسها دون جدوى ولا ثمرة .

ومما لا شك فيه أن اكتناه سر الألوهية من حيث الذات ، أو من حيث القدر ، من المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه ..

ولكن اكتناه سر الالوهية من الامور التى تتطلع اليها نفوس طائفة من الناس أرادوا بعقلهم المحدد ، تعيين ما لا يحد ، وطمعوا فى أن يحدوا بعلمهم الجزئى ما لا يحيطون به علما .

ونشاهد الاتجاه فى عهد الرسول نفسه ، وكان موقف الرسول

منه حاسما ، والأحاديث كثيرة مستفيضة فى النهى عن الخوض فى الذات او فى القدر ، ومما يروى فى ذلك :

« الأمر المتكرر المتنوع بالتفكير فى الخلق دون ذات الخالق ، حتى لا نهلك » .

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال :

« خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب ، حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت اليكم ! انما هلك من كان من قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم الا تنازعوا .. » .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال :

« خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضبا ، حتى وقف عليهم فقال : يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم : باختلافهم عن أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به ..

وبعض الأحاديث تذكر : « فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا ... أو فغضب حتى لكأنما فقيء فى وجهه حب الرمان » .

وكان من الممكن لو استقامت عقول الناس ، ونزعت من قلوبهم الأهواء والشهوات ان يكتفى بنهى القرآن ، وبنهى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذين فى قلوبهم زيغ موجودون فى العالم فى كل آونة وحين ، وفى كل بيئة ومكان .

فقد أطلت الفتنة فى عهد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ممثلة فى صبيغ الذى كان يتكلم فى القدر ، فأخذ عمر يضربه بعراجين النخل على رأسه حتى تاب ، فتركه بعد أن أدمى رأسه وقال حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى ، يريد

بذلك انه قد تاب ، وأن نزغاته قد بددتها عراجين النخل ، وذهبت مع الدم الذى سال من رأسه ..

وسأله سائل عن آيتين متشابهتين ، فعلاه بالدرة ..

يقول الامام ابن قتيبة فى شرح مختلف الحديث :

« .. وقد تدبرت مقالة أهل الكلام ، فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون الناس بالقذى فى عيون الناس وعيونهم تطرف على الاجذاع ، ويتهمون غيرهم فى النقل ولا يتهمون آراءهم بالتأويل ، ومعانى الكتاب والحديث ، وما أودعاه من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد ، والعرض ، والجوهر ، والكيفية ، والاينية .. ولو ردوا المشكل منها الى أهل العلم لوضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة ..

ان عرضنا الدين الاسلامى على هذا النمط من العرض ، جعل كتبنا لا يتيسر فهمها للأجانب عنا ، ولو لم يكن فى الاسلام تلك القوة الذاتية التى تستولى على القلوب وتغمر الافئدة لضاق بهذه الكتب المسلمون أنفسهم .. الاسلام اذن بحاجة الى عرضه عرضا سهلا ميسرا قويا ، وبأساليب متنوعة وصور مختلفة حتى نتلافى هذا التقصير .

ومع كل هذا ... هل منعت هذه العوامل من انتشار الاسلام وذيوعه ؟

الفصل الرابع

مفكرون منصفون من الغرب

مما لا ريب فيه ، أن هناك مفكرين منصفين - لا غربيين فحسب - بل عالميين أيضا ، وهؤلاء درسوا الاسلام دراسة عميقة ، فأحبه البعض وناصره ، وآمن به البعض الآخر ، وأعلن اسلامه وصدق فيه ...

ولقد كانت الحرب الصليبية سببا من الاسباب الأولى التي جعلت الكثير من الاوربيين يغيرون وجهة نظرهم فيما يتعلق بالشرق على العموم ، وبالاسلام على الخصوص .

لقد رأى الغربيون صفات الشهامة والنبل والفروسية يتحلى بها أعداؤهم الشرقيون ، ورأوا أن ديانتهم ليست على ما يصوره الاستعمار من الانحطاط والتخريف .

وبدأ الغربيون يدرسون ، فى شيء من التدبر والروية ، هذا الشرق الذى كان لا يثير فى نفوسهم الا ما رسمه رجال مغرضون من صور تبعث فى النفس النفور .. بل الاشمزاز .

ثم كانت الرحلات الكثيرة ، والاتصال المستمر ، والصلات المباشرة الوثيقة ، من العوامل الفعالة فى ازالة كثير من الاوهام التى علقت بأذهان الغربيين عن الشرق وعن الاسلام .

ومما لا شك فيه اننا لم نعد نرى كاتبا يحترم نفسه فى الغرب ، يذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، هو اله المسلمين ومعبودهم كما كان يقول ذلك كتاب سابقون .

ولم يقف الامر عند حد ازالة الاوهام ، ولكن تيار تفهم الاسلام جرى ، حتى لقد أخذنا نسمع مدح الاسلام من كبار كتاب أوربا وفلاسفتها .

وهؤلاء الكتاب المفكرون ، ينقسمون الى فريقين :

فريق أعلن اسلامه ، فى غير لبس ولا مراءاة ، وجابه الرأى العام ببيئته بعقيدته ، ثم أخذ يدعو اليها مكرسا وقته وجهده لنشرها .

وفريق أحب الاسلام ومدحه . ولا ندرى ماذا أسر فى نفسه !

بيد أن « اللورد هدلى » ـ وسنتحدث عنه فيما بعد ـ يقول :

« اننى أعتقد ان هناك آلافا من الرجال - والنساء ايضا ، مسلمون قلبا ، ولكن خوف الانتقاد والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشىء عن التغيير ، تآمرا على منعهم من اظهار معتقداتهم » .

والحق أن انتقام الكنيسة وعداءها لمن خرجوا على تقاليدها من الرهبة بحيث يجعل كل انسان يطيل التفكير قبل اعلان رأيه .

وسواء أكان هؤلاء الكتاب اعتنقوا الاسلام قلبا ، أم أحبوه وأعجبوا بما فيه من تعاليم ، فسنذكر آراءهم أولا ، ونقتصر فى ذلك على أعلامهم ، بل سنضطر ، مجبرين ، على ذكر بعض هؤلاء الاعلام ، ثم نتحدث فيما بعد عن بعض الذين أسلموا وكانت لهم شهرة عالميـة .

* * *

١ ـ « الكونت هنري دى كاسترى » .

لقد درس « الكونت هنرى دى كاسترى » الاسلام دراسة عميقة ، وكتب عنه كتابا قيما ، ترجمه المرحوم فتحى زغلول ، ونشر بعنوان :

« الاسلام سوانح وخواطر » .

وقصة تفكيره فى دراسته للاسلام قصة طريفة :

كان من كبار الموظفين بالجزائر ، رغم سنه المبكرة ، وكان يسير ممتطيا صهوة جواده ، ويسير خلفه ثلاثون من فرسان العرب الاقوياء ، فخورا بمركزه ، وكان يملؤه الغرور ، للمدح الذى يزجيه اليه هؤلاء الذين تحت امرته .

وفجأة وجدهم يقولون له ، فى شيء من الخشونة ، وفى كثير من الاعتداد بالنفس :

« لقد حان موعد صلاة العصر » ..

ودون ان يستأذنوه فى الوقوف ، ترجلوا واصطفوا للصلاة

متجهين الى القبلة ، ودوت فى أرجاء الصحراء كلمة الاســلام الخالدة :

« الله أكبر . . » . .

شعر الكونت فى هذه اللحظة بشىء من المهانة فى نفسه ، وبكثير من الاكبار والاعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به ، ذلك لأنهم اتجهوا الى الله وحده ، بكل كيانهم ، وبدأ يتساءل :

ما الاسلام ؟ أهو ذلك الدين الذى تصوره الكنيسة فى صورة بشعة تنفر منها النفس ، ولا يطمئن اليها الوجدان . . ؟

وبدأ يدرس الاســلام ، وتغـيرت فكرته عنــه ، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى اليه ، فكان كتاب : « الاســلام خواطر وسوانح » (١) .

وفى هذا الكتاب الطريف : تحدث عن كثير من جوانب الاسلام سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالرسول ، أم فيما يتعلق بالتعــاليم الاسلامية ، وقد تحدث — فضلا عن ذلك — عن آراء مواطنيه ، خصوصا القدماء منهم فى صورة من السخرية ، والتهكم .

« وذهبوا الى أن محمدا وضع دينه بادعائه الألوهية .

ومن المستغربات قولهم : ان محمدا الذى هو عدو الأصــنام ، ومبيد الأوثان : كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب ، كما كان يعتقد : « الكرلوقنجيون » .

بل لقد أغرق خيالهم فى الضلال ، فذهبوا الى أبعد من ذلك .

« وذهبوا الى أن صورة « ماهوم » (١) كانت تضع من انفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع ، وأدق اتقان .

وبعد أن ذكر الكثير من آرائهم قال :

ولقد أطلنا القــول فى تلك الأضاليل ، لأن تاريخ اسكندر (٢)

---

(١) ونحن نعتمد على هذا الكتاب على الخصوص فى هذا المقال .
(١) المقصود محمد صلى الله عليه وسلم .

المذكور لم يزلها ، ولأنها تركت أثرا فى الأذهان وصل الى أهل هذه الأيام ، وتشبعت به أفكارهم فى النبى وكتابه » .

ولكن ما سر هذه الحملة الشعواء الضالة التى تهزأ بالحق والضمير ، والتى لا يقرها دين أيا كان ؟

« ولو سأل سائل : هل كان أولئك المفسرون يعتقدون صحة ما يقولون ؟ لأجبناه جواب أهل « نورمندة » لا ــ ونعم ، اذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدى على حقيقته ، ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية فى أناشيدهم ، بل حفظ روح البغضاء فى نفوس قومهم » .

هل هذه الروح التى كانت سائدة عند المسيحيين تجاه الاسلام ، اقتصرت على العصور الوسطى ؟ كلا ...

« فلم يزل هذا الروح سائدا عند المسيحيين حتى أن المستشرق « بريدو » الانكليزى ألف سنة ١٧٣٣ كتابا فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم عنوانه : « حياة ذى البدع محمد »

وترجمه بعضهم الى لغتنا ، وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال :

« ... أن غرض واضع هذا الكتاب ، هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم ، ثم يعقب الكونت على ذلك بهذه الكلمة الحكيمة :

« أولئك كتاب ما قصدوا التأريخ ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون ، وكان سلاحهم الوحيد فى تأييد سواقط حججهم ، أن يشبعوا خصمهم سبا وشتما ، وأن يحرفوا فى النقل مهما استطاعوا » .

ثم يأخذ الكونت فى الرد على الافتراءات ، ومن أولى هذه الافتراءات :

---

(٢) ألف القسيس « اسكندر دوبون » كتابا ١٢٥٨ م عن محمد وكان الناس يعدونه تاريخا صحيحا للرسول مع أنه ليس كذلك

أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان يقرأ ويكتب ، فقرأ التوراة وقرأ الانجيل وأخذ تعاليمه منهما .

وقد رد القرآن على هذه الفرية فقال :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون » ..

ويقول الكونت فى هذا المعنى :

« ما كان يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مرارا ـ نبيا أميا ـ وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ، ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس . لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار ، ولم يكن بمكة قارىء أو كاتب سوى رجل واحد ذكره « جارسين دى تاس » فى كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ ، كذلك من الخطأ مع معرفة أخلاق الشرقيين أن يستدل على معرفة النبى للقراءة والكتابة باختيار « السيدة خديجة » رضى الله عنها ، اياه لمتاجرها فى الشام ، ولم تكن لتعهد اليه أعمالها ان كان جاهلا غير متعلم ، فانا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون ، وهم فى الغالب أكثر أمانة وصدقا » .

« أما فكرة التوحيد : فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مطالعته التوراة والانجيل ، اذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث ، وهو مناقض لفطرته ، مخالف لوجدانه منذ خلقته ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته ، وهو بذاته اكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته فى نبوته .

أما صدق الرسول وسمو رسالته ، فقد أخذ كثير من رجال الكنيسة ومن رجال الاستعمار يشككون فيهما ، ورغم الوضوح الواضح فى صدق الرسول وفى سمو الرسالة الاسلامية ، فان رجال

الدين من المسيحيين ورجال الاستعمار لا يزالون يبدأون ويعيدون في ترداد التشكيك الى هؤلاء وأولئك . يقول الكونت :

« والعقل يحار كيف يتسأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل امى ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الانسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار فى جمالها ، وكفى رفيع عبارتها لاقناع عمر بن الخطاب ، فآمن برب قائلها ، وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن أبى طالب سورة مريم ، وما جاء فى ولاية يحيى ، وصاح القسيس :

ان هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى . قال ناقل هذه الرواية ،، كوزان دى بيرسوفال » :

فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشي جعفر ، وأشار اليـــه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ، ففعل ، واستغرب الملك لما سمع أن المسيح : عبد الله ورسوله ، وروح منه ، نزل فى أمه مريم ، وأعجب أشد الاعجاب بهذه المعانى وحمى المسلمين ، ولم يسلمهم الى رسل قريش ، ولم ينفهم من بلاده .

أما هؤلاء الذن بلغ بهم التعسف مداه : فظنوا أن هذه الفترات التى يغيب فيها الرسول عن هذا العالم ليكون بكليته مستغرقا فى الملأ الأعلى ، انما هى فترات مرضية ، أو هى الصرع ، ورغم تكذيب الطب لمزاعمهم مستندا الى الاختـــلاف الكلى بين أعراض الصرع وأعراض الوحى ، فقد أعماهم التعصب عن رؤية الحقيقة واليهم يقول الكونت :

« ومن ذلك الحين أى البعثة ــ أخذت شفتاه تنطلق بألفـــاظ بعضها أشد قوة وابعد مرمى من بعض ، والأفكار تتدفق من فمه على الدوام الى أن يقف لسانه ولا يطيعــه الصوت ، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الانسان ، وسما عن أن يترجمه قلم أو لســان .

وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعضهم أن

به جنة ، وهو رأى باطل ، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ، ولم يشاهد عليه قبل ذلك اى اعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة المادية ، وليس من الناس من عرف الناس جميعا أحواله فى حياته كلها مثل النبى صلى الله عليه وسلم ، فلقد وصل المحدثون عنه الى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض فى لحيته ولو أنه كان مريضا لما أخفى مرضه لأن المرض فى مثل تلك الأحوال يعتبر أمرا سماويا عند الشرقيين .

وليست حالة محمد صلى الله عليه وسلم انفعالاته وتأثراته بحالة ذى جنة ، بل كانت مثل التى قال نبى بنى اسرائيل فى وصفها :

« لقد شعرت بأن قلبى انكسر بين أضلعى ، وارتعشت منى العظام ، فصرت كالنشوان ، لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة » .

ونختم الحديث عن آراء الكونت بهذا الوصف الرائع لتلك الساعة الأليمة ، التى فارق فيها الرسول عالمنا الدنيوى ، ليلحق بالرفيق الأعلى ، ولينعم برضوان الله ، اذ يقول :

« ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فانه لم يرغب طول حياته فى المال ، بل كان كلما جمع اليه شىء منه أنفقه فى الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة يسيرا لتحفظه ، فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته ، وغاب فى سنة ، ولما أفاق سألها ان كانت أنفذت أمره ، فأجابته : كلا ، فأمر بالنقود وأشار الى العائلات المعوزات ، فوزع عليهم وقال :

« الآن استراح قلبى ، فاننى كنت أخشى أن الاقى ربى وأنا أملك هذا المال . . »

وكان فى مرضه يخرج كل يوم ليصلى الظهر بالناس ، وآخر يوم خرج فيه ، هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ ، وكانت مشيته مضطربة ، فتوكأ على الفضل بن العباس وعلى بن أبى طالب ، وقصد منبر الخطابة الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد ، فقال :

« أيها الذين تسمعون قولى ، ان كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهرى فليضربه ، وان كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتى ، وان كنت سلبت أحدا ماله فاليه مالى يقتص منه ، وهو فى حل من غضبى ، فان الغل بعيد عن قلبى » .

ثم نزل من على المنبر وصلى بالجماعة ، ولما اراد الانصراف أمسك به رجل من ازاره وطلب منه ثلاثة دراهم دينا له ، فأداها على الفور قائلا :

« لخزى الدنيا اهون من خزى الآخرة » .

ثم دعا لمن حارب معه فى أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران .

وكان مشـــهد النبى بين المؤمنين فى ذلك اليــوم مشهد جلال ووقار ، والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذى شربه من يد يهودية خيبر ، وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك انه لما كان فى واقعة خيبر قدمت اليه يهودية اسمها : زينب شاة مشوية اضافت اليها سما ، فأخذ منه النبى قطعة واحدة بين شفتيه واحس بأنها مسمومة ، فألقاها ، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين ، كان يقول :

« ما زالت تعاودنى أكلة خيبر » .

وكان أبو بكر نفسه يبكى ويقول للرسول :

« هلا افتدينا روحك بأرواحنا ؟

ثم أوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعبا مهزولا ، وصار المرض يشتد عليه ، فتخلف عن الصلاة بالمسلمين ، وقيل له : قد جاء وقت الظهر ، فأشار الى أبى بكر ليصلى بالناس ، فكان من وراء هذه الاشارة خلافة أبى بكر بعد النبى .

وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت : كان رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسندا الى صدرى ، وبقربه قدر ماء ، وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ، ويقول :

« رب أعنى على تحمل سكرات الموت ، ادن منى يا جبريل ،

رب اغفرلى واجمع بين أصدقائى فى السماء ، ثم ثقلت راسه ومال ثانية الى صدرى » .

* * *

٢ ــ كارلايل :

وكارلايل احد كبار كتاب الانجليز ، شاعرى النزعة والفطرة ، متحرر من الرياء والخبث ، يتتبع البطولة ، فيكتب عنها ويمتدحها ، ويحبب الناس فى السمو بأنفسهم الى منازل الأبطال ، أو على الأقل الى التشبه بهم ، وقد أثار كتابه : « الأبطال » اعجابا فى ميدان الفكر العالمى ، وترجم الى كل اللغات الحية ، وحينما ترجمه المرحوم محمد السباعى الى اللغة العربية ، أثار الكثير من الاعجاب ، وقد كان لأسلوب الأستاذ السباعى البارع أثر فى انتشار الكتاب ومن لم يقرأه لمعانيه قرأه لأسلوبه ، وفى هذا الكتاب فصل مستفيض عن حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، نقتطف منه ما يلى :

« من العار أن يصغى أى انسان متمدين من أبناء هذا الجيل الى وهم القائلين . ان دين الاسلام كذب ، وأن محمدا لم يكن على حق » .

لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التى دعا اليها هذا النبى ، ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان ، لملايين كثيرة من الناس ، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين ، وماتت ، أكذوبة كاذبة ، أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفا وعبثا ، وكان الأجدر بها ألا توجد .

هل رأيتم رجلا كاذبا ، يستطيع أن يخلق دينا ، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟

ان الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتا من الطوب ، لجهله بخصائص مواد البناء ، واذا بناه فما ذلك الذى يبنيه الا كومة من

اخلاط هذه المواد ، فما بالك بالذى يبنى بيتا دعائمه هذه القرون العديدة ، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمدا رجلا كاذبا متصنعا ، متذرعا بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع .. وما الرسالة التى اداها الا الصدق والحق .

وما كلمته الا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول .. وما هو الا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

أحب محمدا ، لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى ، لا يعتمد الا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع ، كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين ، أكاسرة العجم ، وقياصرة الروم ، يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة . والحياة الآخرة .

وما كان محمد بعاشق قط ، ولا شاب قوله شائبة لعب ولهو ، فكانت المسائل عنده مسألة فناء وبقاء . أما التلاعب بالأقوال ، والعبث بالحقائق فما كان من عادته قط .

ويزعم المتعصبون أن محمدا لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان .. كلا واسم الله .

لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس ، المملوء رحمة وبرا وحنانا ، وخيرا ونورا وحكمة ، أفكار غير الطمع الدنيوى ، واهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان .

ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره ، حمق وسخافة وهوس : ان رأينا رأيهم ، اية فائدة لرجل على هذه الصورة فى جميع بلاد العرب ، وفى تاج قيصر وصولجان كسرى جميع ما بالأرض من تيجان .

لم يكن كغيره ، يركى بالأوضاع الكاذبة ، ويسير تبعا للاعتبارات الباطلة ، ولم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل .

لقد كان منفردا بنفسه العظيمة ، وبحقائق الكون والكائنات ؟
لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه .
لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثا من قلب الطبيعة ذاتها ..
لهذا وجدنا الآذان اليه مصغية ، والقلوب لما يقول واعية .

لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ؟ وسائر أموره وأحواله ، فكان طعامه ، عادة الخبز والماء ، وكثيرا ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار .

فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل متقشف ، خشن الملبس والمأكل ، مجتهد فى الله ، دائب فى نشر دين الله ، غير طامع الى ما يطمع اليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان .

ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراما واجلالا واكبارا ، ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ؟ ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون حوله ، يقاتلون بين يديه ويجاهدون معه .. لقد كان فى قلوب العرب جفاء وغلظة ، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم ، لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلا ، وايم الله .

ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لارادته، ولما انقادوا لمشيئته .

وفى ظنى أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبى ، لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته ، كما استطاع هذا النبى فى ثوبه المرقع » .

هكذا تكون العظمة .
وهكذا تكون البطولة .
وهكذا تكون العبقرية .

***

٣ — تولوستوى :

ولعنا لسنا بحاجة الى الحديث عن « تولستوى » اديب وكاتب روسيا الأعظم ، لقد كان من هؤلاء الذين سمت نفوسهم الى درجة

لا تكاد نجد لها مثيلا فى التاريخ الا نادرا ، كانت سعادة الانسانية همه الملازم فى كل آونة ، كان باستمرار يفكر فى تخفيف ويلات الانسانية فى معالجة مرضاهم . . فى تسلية بائسهم ، فى أطعام جائعهم ، فى التخفيف عن منكوبهم ، وككل العباقرة الذين تسمو بهم عبقريتهم عن المستوى العادى . . صادف فى حياته العقبات والآلام ، وبغض الحاقدين ، وكراهية الذين لا يحبون الحق .

ومن مآثره الكريمة : أنه حينما رأى الحملة الظالمة على الاسلام ، وعلى رسول الاسلام ، كتب رأيه فى هذا الدين الذى أعجب به وتحدث عن رسوله الذى نال اكباره ، وكان جزاؤه على ذلك ، أى على كلمة الحق التى يدين بها : أن حرمه البابا من رحمة الله ، فكان ذلك كما يقول الشيخ محمد عبده مخاطبا الأديب الكبير :

« فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس : أنك لست من القوم الضالين » .

ونحن ننشر هنا كلمة صغيرة جدا من رأيه ، ثم ننشر خطاب الشيخ محمد عبده الذى وجهه اليه :

يقول » تولستوى «

« لا ريب أن هذا النبى : من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا : انه هدى أمة برمتها الى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا . .

ويكفيه فخرا : أنه فتح طريق الرقى والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به الا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما ، ورجل مثله جدير بالاحترام والاجلال » .

أما خطاب الشيخ محمد عبده فهو التالى (١) :

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى :

---

(١) وقد نشره الشيخ رشيد رضا فى كتابه عن الشيخ محمد عبده .

لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكننـا لم نحرم التعـارف مع روحك ، سطع علينا نور من افكارك ، واشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله الى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ، ووفقك الى الغاية التى هدى البشر اليها ، فأدركت أن الانسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه ، وسعيا يبقى ويربى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس ، لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وحينما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها الا ليسعدوا بها ، فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم ..

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ما هداك الله اليه ، وتقدمت امامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هاديا للعقول ، كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان بمثالك فى العمل اماما يقتـدى به المسترشدون .

وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء ، كان مددا من عنايته للضعفاء والفقراء ، وان أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على متاعبك ، فى النصـح والارشاد ، هو هذا الذى سماه الغـافلون بالحرمان والابعاد ، فليس ما حصل لك من رؤسـاء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين ، فأحمد الله على أن فارقوك فى اقوالهم .. كما كنت فارقتهم فى عقائدهم ».

هذا وان نفوسنا لشيقة الى ما يتجدد من آثار قلمك ، فيما تستقبل من أيام عمرك .

وانا نسأل الله أن يمد فى حياتك ، ويحفظ عليك قواك ، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ، ويسوق النفوس الى التأسى بك فى عملك والسلام » .

٤ ـ اللورد هيدلى :

كان لاسلام اللورد هيدلى ، ضجة كبيرة ـ لمركزه ، ولما يعلمه فيه عارفوه ، من نضج فى التفكير ، وترو فى الأمور ـ وحينما أراد الحج مر بالاسكندرية ، فأقام له أهالى الثغر حفلة كبرى وضعت تحت رعاية الأمير السابق ـ عمر الطوسونى ـ الذى ألقى كلمة حيا فيها الضيف الكريم ابتداها بقوله :

« مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا ، لقد خفت مصر الى استقبالكم ، وابتهجت بمقدمكم الكريم ، وكان سرورها بذلك عظيما ، حتى لقد تمنت كل مدينة أن تسعى بأهلها اليكم ، أو يكون لكم متسع من الوقت لزيارتها ، فتقوم بما يجب لكم من الاجلال والاعظام ، والترحيب والاكرام » .

وكانت الحفلة برئاسة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الغنى محمود شيخ علماء الاسكندرية .

كيف أسلم اللورد هيدلى ؟

ما هى العوامل التى دعته الى اعتناق الاسلام ؟

اننا فى الصفحات التالية سنذكر جملة من النصوص ترشد القارىء الى سبب رفضه المسيحية والى سبب اسلامه ، والى تصويره لكثير من وجهات النظر الاسلامية .

ويقول :

« عندما كنت أقضى ـ أنا نفسى ـ الزمن الطويل من حياتى الأولى فى جو المسيحية ، كنت أشعر دائما أن الدين الاسلامى : به الحسن ، والسهولة ، وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت !!

وثبتنى فى هذا الاعتقاد ، زيارتى للشرق التى أعقبت ذلك ، ودراستى للقرآن المجيد .. »

له الله .. لكم تألم وقاسى فى سبيل وصوله الى الحق :
اسمع اليه يقول :

« فكرت وصليت أربعين سنة ، كى أصل الى حل صحيح » .

ويجب على أن أعترف أيضا أن زيارتى للشرق ملأتنى احتراما عظيما للدين المحمدى السلس الذى يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة ، لا فى أيام الآحاد فقط .

ويرى أن الاسلام هو الدين العالمى حقا .

« أيمكن اذن ، أن يوجد دين يمكن العالم الانسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقى ، الذى هو فوق الجميع ، وأمام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو والتلبيك ؟ .. »

فكر لحظة ـ وذلك تفكير لازم لكمال البشر فى الحقيقة ـ أنه اذا أصبح كل فرد فى الامبراطورية الانجليزية محمديا حقيقيا ، بقلبه وروحه ، لأصبحت ادارة الأحكام أسهل من ذلك ، لأن الناس سيقادون بدين حقيقى .

وها هو ذا يعبر عن الشكر حينما هداه الله :

« روح الشكر هى : خلاصة الدين الاسلامى ، والابتهال أصل فى طلب القيادة والارشاد من الله .

انه وان كان شكرى لله على كرمه وعنايته ، كان متأصلا فى من صغرى وأيام حداثتى ، الا أننى لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية ، التى قرع فيها الدين الاسلامى لبى حقا ، وتملك رشدى صدقا ، وأقنعنى نقاؤه ، وأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى ، اذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل ، كما أستنشق هواء البحر ، الخالص النقى ، وبتحققى من سلاسة وضياء ، وعظمة الاسلام ومجده ، أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم ، الى فسيح من الارض تضيئه شمس النهار .

ومما يذكر من تعاليم الاسلام مشيدا به:

« ليس هناك فى الاسلام الا اله واحد ، نعبده ونتبعه ، انه أمام الجميع ، وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، انه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ، رؤية أبيهم القهار ، المتصل دواما بكل مخلوقاته ، سواء كانوا عاديين ، أو أولياء مقدسين .

مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ، ويمكن ادارته بأذل وأقل المخلوقات دون أية مساعدة من نبى أو كاهن أو ملك ، انه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لكل خلق الله .

أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك ، ما دعاهم الى هذا العمل الا حب الفائدة .

ليس غرضى الرئيسى أن أهاجم اى فرع معين من فروع الديانة ، لأبين جلال وسلاسة الديانة الاسلامية ، التى هى خالية فى نظر الكاتب المنصف من العوائق الظاهرة جليا فى كثير من الديانات الأخرى .. »

ولقد افترى كثيرون على الاسلام ، وها هو ذا يرد على افتراءاتهم :

« ليس فى وسع الانسان ، فى الحقيقة الا ان يعتقد أن مدبجى وناسجى هذه الافتراءات ، لم يتعلموا ، حتى ولا أول مبادىء دينهم ، والا لما استطاعوا أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم ، تقارير معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق .

ان تعاليم القرآن الكريم ، قد نفذت ومورست فى حياة محمد الذى ـ سواء فى أيام تحمله الألم والاضطهاد ، أو فى زمن انتصاره

ونجاحه ـ أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لا يتسنى لمخلوق آخر اظهارها .

فكل صفات الصبر والثبات فى عصره كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التى تألمها فى مجاهداته الأولى بمكة ، ولم يشعر فى كل زمن هذا الجهاد بأى تزعزع فى الثقة بالله ، وأتم كل واجباته بشمم وحمية .

كان ، صلى الله عليه وسلم ، مثابرا ، ولا يخشى أعداءه ، لأنه كان يعلم بأنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله ، ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه .

ولقد أثارت تلك الشجاعة التى لا تعرف الجفول ـ تلك الشجاعة التى كانت حقا احدى مميزاته وأوصافه العظيمة ـ اعجاب واحترام الكافرين ، وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله .. ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا ، وازداد اعجابنا به بعد ذلك فى حياته الأخيرة ، ايام انتصاره بالمدينة ، عندما كانت له القوة ، والقدرة على الانتقام ، واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل ، بل عفا عن كل أعدائه .

العفو والاحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك الصفات ، كانت ترى منه فى كل تلك المدة ، حتى ان عددا عظيما من الكافرين اهتدوا الى الاسلام عند رؤية ذلك .

عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه ، آوى اليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة ، وأغنى فقراءهم ، وعفا عن الد أعدائه ، عندما كانت حياتهم فى قبضة يده ، وتحت رحمته ... !!!

تلك الأخلاق الربانية التى اظهرها النبى الكريم ، اقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون الا من عند الله ، وأن يكون رجلا على الصراط المستقيم حقا ، وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم : حولتها تلك الأخلاق الشريفة الى محبة وصداقة متينة .

محمد المثل الكامل ..

« نحن نعتبر ان نبى بلاد العرب الكريم ، ذو أخلاق متينة ، وشخصية حقيقية وزنت واختبرت فى كل خطوة من خطا حياته ، ولم ير فيها اقل نقص ابدا .

وبما اننا فى احتياج الى نموذج كامل يفى بحاجاتنا فى خطوات الحياة ، فحياة النبى المقدس تسد تلك الحاجة .

حياة محمد : كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى ، والسخاء والكرم ، والشجاعة والاقدام ، والصبر والحلم ، والوداعة والعفو ، وباقى الأخلاق الجوهرية التى تكون الانسانية . ونرى ذلك فيها بالوان وضاءة ... خذ أى وجه من وجوه الآداب وانت تتأكد أنك تجده موضحا فى احدى حوادث حياته .

ومحمد وصل الى أعظم قوة ، وأتى اليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لاتجارى ، وكان ذلك سببا فى هدايتهم ونقائهم فى الحياة .. !!

رحم الله اللورد هيدلى ، وجزاه عن الاسلام خير الجزاء .

٥ ــ اتيين دينيه :

ولد « ألفونس اتيين دينيه » (١) فى باريس سنة ١٨٦١ ،

---

(١) ألفت المودة بين الاستاذ الاديب راشد رستم ، والمغفور له ، ناصر الدين ، وقد كان الاستاذ راشد أول من عرف المصريين به ، فقد ترجم رسالته : « أشعة خاصة بنور الاسلام » الى اللغة العربية ، ونشرها فى صورة حسنة ، وحينما توفى ناصر الدين سنة ١٩٢٩ كتب الاستاذ راشد عنه ، مقالا فى جريدة الاهرام . وقد استأذناه فى الانتفاع بالترجمة العربية لرسالة « أشعة خاصة بنور الاسلام » عند المناسبات التى تعرض خلال عملنا هذا ، وكذلك فى نشر مقاله الذى كتبه بجريدة الاهرام ، فأذن بذلك راضيا مغتبطا ، ولا يسعنا الا أن نسجل له الشكر الجزيل ، راجين من الله أن يجزيه أحسن الجزاء . وفيما يلى المقال المذكور :

« مات هذا المستشرق النابه ، وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الاخير ، العدد العديد من كبار قومه الرسميين ، ومن أصدقائه ، وعارفى فضله من أهله ، ومن غير

أهله ، من ممثلي الشعوب الشرقية التي أحبها وخدمها . وقد وجب علينا - وان كنا لم نقف هنالك في باريس مع الواقفين خاشعين - أن نبعث الى روحه تحيات السلام والاعتراف بالجميل .

أحب المسيو « دينيه » حياة العرب ، وهو ذلك الفنان الكبير ، فاتخذ له بينهم مقاما محمودا في بلاد الجزائر ، في تلك الواحة الهادئة الجميلة « بوسعادة » ينتقل اليه ويسكنه نصف العام كاملا ، يرتاح للعرب وجيرتهم ، ويروح عن نفسه بينهم ، وينعم بما في حياتهم من جلال تلك المناقب المأثورة عنهم ، وتلك المكارم المعروفة بهم ، والتي لا يميل اليها الا عشاق الخيال السامي ، ولا ينشدها الا أهل الفضائل العالية .

وقد وضع في حياة العرب كتابا جميلا جليلا ، ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة ، ذات البلاغة في تصويرها ، والبيان في صحتها .

والمسيو « دينيه » يبلغ من العمر سبعين عاما ، وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير ، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة ، تزدان بها جدران المعارض الفنية ، وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم ، وله في متحف (لوكسمبرج) - وهو متحف كبار المصورين العصريين بباريس - عدة صور ، منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم : (غداة رمضان) وكذلك له صورة في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدنى) باستراليا ، وغير ذلك كثير .

وجميع صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء ، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة ، وهو ذو مركز خاص مشهود به بين اخوانه المصورين ، وامتاز عنهم بتخصصه في تصوير الحياة الاسلامية ، وبالاخص ما كان منها في بلاد الجزائر .

وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح ، حتى قيل عنه : انه المصور الفريد بين اخوانه ، الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والالوان والاصباغ أحسن تمثيل وهم يقولون عنه : انه المصور « العربي » .

وقد جاءت ترجمة المسيو « دينيه » وأعماله في معجم « لاروس » الكبير ، وفي معلمة « هاشيت » للفنون الجميلة . وله عدة مؤلفات منها : كتاب (حياة العرب) الذي ذكرناه ، وكتاب (السراب) ، وكتاب (حياة الصحراء) ، وكتاب (ربيع القلوب) ، وكتاب (الشرق كما يراه الغرب) ، وكلها تشير الى ما في طبيعته من الخلق الطيب ، وما يحمله في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين .

ومن أهم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول سيد محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية ، وزينه

بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة ، من ريشته الخاصة ، يمثل فيها المناظر الاسلامية ، ومشاهد الدين ومعالمه ، وطبعه طبعا غاية فى الاتقان والعناية ، حتى انه ليعد تحفة من تحف الطباعة .

كل ذلك كان تقديرا منه لموضوعه ، ثم انه قدمه لارواح الجنود الاسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين ، ونشره كذلك باللغة الانجليزية بنفس الحجم الكبير والاتقان التام ، والكتاب فى طبيعته قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ، ذات الاشكال العربية ، غاية فى الدقة والابداع ، وهى اللوحات التى قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد راسم الجزائرى ، أشهر رجال الزخرفة العربية ، والذى اشار اليه المسيو « لازار » الاستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها ، وذلك فى المحاضرة التى ألقاها فى النادى الفرنسى بالقاهرة فى شهر مارس سنة ١٩٢٩ ، ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية .

وما نظن ان العالم العربى قد قرا للمسيو « دينيه » شيئا بالعربية قبل ذلك الرسالة التى عربناها له : (أشعة خاصة بنور الاسلام) والتى نشرت بمصر فى هذا العام ، وهى التى جعلها بحثا عصريا ، فى مبادىء الدين الاسلامى ، وأراد اظهار هذه المبادىء واضحة جلية ، وأنها تفضل مبادىء المدنيات الحاضرة ، ولعل هذه الرسالة هى آخر ما كتب ، اللهم الا اذا كان قد فرغ من (رحلة الحج) التى كان قد ذكر لنا أنه يشتغل بتدوينها بهمة ونشاط ، وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز ، هذا العام ، بعد أن أدى فريضة الحج .

واذا سمحت لنا الحقيقة أن نقرر شيئا فانه ذكر لنا فى كتابه الينا انه لاقى من التعب والمشاق الشىء الكثير ، رغم ما لاقاه من التكريم والعناية الخاصة ، ورغم نسيانه المشقة فى سبيل الله ، وهو يدعو الى اصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لاولئك الالوف من الحجاج الذين يأتون رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

والمسيو « دينيه » كاتب رقيق العبارة ، واسع الاطلاع ، لذلك فهو صحيح الحجة ناهض البرهان ، ثم هو شديد الهجوم شديد الدفاع ، ذلك لانه غيور على مبدئه الذى لم يتخذه الا بعد بحث وتفكير .

وقد أعلن اسلامه رسميا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر فى اجتماع حافل عام ١٩٢٧ ، وطلب أن يدفن فى قبره مسلما حنيفا ، وهو القبر الذى شيده لنفسه فى بلدة (بوسعادة) بالجزائر ، وقد ذكرت الاهرام فى تلغرافاتها الخصوصية أمس : أنه سينقل اليها من فرنسا وفق وصيته ، ويقول : انه لم يسلم لطمع ، أو مغنم (والرجل غنى موسر الحال) وانما أسلم ارضاء ليقينه وضميره ، وانه ناقش الناصرين والطاعنين ، فخرج من « دينيه » الى « ناصر الدين » .

وعاش ـ رحمه الله ـ فنانا بطبعه : كان مرهف الحس ، رقيق الشعور ، جياش العاطفة .

وكان صاحب طبيعة متدينة أيضا : كان كثير التفكير ، جم التأمل ، يسرح بخياله فى ملكوت السموات والأرض ، يريد أن يخترق حجبه ، ويكشف عن مساتيره ، ويصل ... الى الله .

كان فنانا يتملكه شعور دينى ، وكان دينيا ، يغمره ويسيطر عليه شعور فنى ؛ وامتزج فيه الفن بالدين ، فكان مثالا واضحا للانسان الملهم .

نشأ من أبوين مسيحيين ، وتلقن ـ بطبيعة الحال ـ العقائد المسيحية نظريا ، ومارسها عمليا ، وذهب به أبوه ـ ككل مسيحى ـ الى التعميد ، والى الكنيسة ، فشب وترعرع على عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران .

وله فى بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم جولات قلمية ، ولوحات تصويرية ، تشهد له باخلاصه فى حب الشرق ، وتقوم دليلا على حبه للعدل والانصاف . وقد استفتاه بعضهم عن أمر الشرق والغرب فكتب يقول « ان الغرب يخطئ النظر الى الشرق ، مع أن للشرق على الغرب أفضالا متأصلة فى مدنيته ، متغلغلة فى حياته ، ذلك من أثر الدينيات ، التى هو مدين فيها للشرق ، ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التى منشؤها اليهودية الشرقية ، ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعساء ، التى منشؤها أنظمة الفروسية العربية ، ومن أثر علم البحار وعلم السماء ، وعلم الابدان وعلم الكيمياء التى ابتدعت أصولها العقول الشرقية » .

ويقول : « ان الشرق لم يضمر للغرب الاساءة ، وان الغرب يخطىء اذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية ، مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له الا السلامة » .

وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولا للسلام بين الشرق والغرب ، وهو المثل الطيب لكل فرنسى يحب بلاده الاصيلة ويحب الشرق الجميل النبيل ، ومع أنه قد اعتنق الاسلام وعاش مسلما ومات مسلما ، فان ذلك لم يمنعه من أن يكون مقيما على العهد والاخلاص لبلاده المحبوبة ، وأن يجتمع حول نعشه رجال فرنسا الرسميون من الوزراء ، يذكرون حسناته ويؤبنونه أحسن التأبين ـ ذلك لنبالة قصده ، ومتانة انسانيته » (راشد رستم) : الاهرام فى ١٩/١٢/١٩٢٩ م .

وعلى مر الزمن ، أخـذت تستبين فيه طبيعته الفنية ، وأخـذ يستولى عليه شعور بالقلق والحيرة من الناحية الدينية .

ان الفنان يتصور الخلود فى دقة لا تتأتى لغير ذوى الشـعور الفنى ، ويتمنى الخلود ، ويريده ، ويعمل جاهدا لتكتب لوحاته فى سجل الخلود ، فتسمو على الزمن ، وترتفع عن حدود مايتناهى .

وأصـحاب الطبـائع الدينية يفكرون فى الخـلود ، ويتمنونه ويريدونه ، ويعملون جاهدين لكشف المعمى فيما يتعلق بمصيرهم الأبدى .

وكان « دينيـه » يفكر فى لوحاته ، ويفكر فى مصـيره ، ويعمل جاهدا ليبلغ الذروة فى الفن ، ويعمل جاهدا لازالة الظلمة المتكاثفة فى دائرة اللا نهاية .

وكانت هناك وسائل لصقل ــ للصقل لا للايجاد ــ الطبيعة الفنية ، والاتجـاه بها نحو الكمال ، وفى ذلك ما يطمئن ، نوعا ما ، وفى ذلك علاج ــ بعض العلاج ــ للقلق فيما يتعلق بالفن ، وقد جد « دينيه » فى استكمال وسائل الصقل ، النظرية منها والعمليـة واتخذ لذلك الأسباب ، واحس من هذه الجهة ببعض الطمأنينة .

ولكن ما العلاج لطبيعته الدينية القلقة ؟ ليس لذلك من علاج سوى البحث والتأمل واطالة التفكير فى الكون ، فى النصـوص المقدسة ، وفى العقائد التى يدين بها الوسط المباشر ، والبيئـة المحيطـة ... وفكر « دينيه » فى المسيحية ، وفى الكنيسـة ، وفى البابا المعصوم ، وفى عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران ..

المسيح ابن الله !!! وقد صلب ليطهر بنى البشر من اللعنة التى حلت بهم بسبب خطيئة آدم ... !!!

انه صلب ليفتدى البشر ، ثم هو ابن الله ، وهو الله ... وهو بشر ... وهو اله ... !!!

ويدور رأس دينيه ، فلا يكاد يرى بارقة من أمل فى أن يهتدى الى الحق فى كل ذلك .. وهل فى ذلك من حق ؟ ... وهل فى الظلمة من نور ...؟

الأناجيل الحالية غير صحيحة :

ومع ذلك فلم ييأس ، بل أعاد قراءة الأناجيل من جديد محاولا جهده ، أن يراها تتسم بسمة الحق ، فيؤمن بابن الله ، وبالكاثوليكية، ولكنه رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للانسان الكامل فضلا عن الصورة التى تريد المسيحية أن توحى بها :

فمن أقوال المسيح التى فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر منه فى عرس « قانا » : « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك ، ودعا أيضا يسوع تلاميذه الى العرس ، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ، قال يسوع : مالى ومالك يا امرأة » (١) .

ومن أقواله التى تحمل فى طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها ، لأنه لم يكن موسم تين : « فنظر شجرة تين من بعيد ، عليها ورق ، وجاء لعله يجد فيها شيئا ، فلما جاء اليها لم يجد شيئا الا ورقا ، لأنه لم يكن وقت التين فتعجب يسوع وقال لها :

لا يأكل أحد منك ثمرا بعد الى الأبد ، وكان تلاميذه يسمعون » (٢) .

---

(١) انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى عشر ، هذا ما يقوله الانجيل فيما يتعلق بصلة المسيح بأمه . أما القرآن فانه يقول : « فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ! قال : انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

(٢) انجيل مرقص : الاصحاح الحادى عشر .

كذلك من أقواله الدالة على كره الغريب :

« ... واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة :

ارحمنى يا سيد يابن داود ، ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال :

لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة (١) .

ومن أقواله التى توجب كراهية الأقرباء :

« ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه ، وامرأته وأولاده ، واخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضا ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » (٢) .

ومن أقواله التى فيها اعتراف بالجهل :

« وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن الا الأب » (٣) .

هذه النصوص تبعث فى النفس الشك فى صحة الأناجيل التى بين أيدينا (٤) .

صحة الاناجيل :

وأداه ذلك الى البحث فى صحة الأناجيل ، وفى قيمتها من الناحية التاريخية .

وكانت نتيجة بحثه : انه لا شك أن الله قد أوحى الانجيل الى عيسى بلغته ولغة قومه ولا شك أيضا أن هذا الانجيل قد ضاع واندثر ، ولم يبق له أثر ، أو أنه باد ، أو انه قد أبيد (٥) .

---

(١) انجيل متى : الاصحاح الخامس عشر .
(٢) انجيل لوقا : الاصحاح الرابع عشر .
(٣) انجيل مرقص : الاصحاح الثالث عشر .
(٤) عن « أشعة خاصة بنور الاسلام » .
(٥) عن « أشعة خاصة بنور الاسلام » .

ولهذا قد جعلوا مكانه « توليفات » أربعا ، مشكوكا في صحتها ، في نسبتها التاريخية .

كما انها مكتوبة باللغة اليونانية ، وهى لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التى هى لغة سامية ، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود (١) ... ورأى — في النهاية — في وضوح :

« أن الديانة الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة . وقد اظهرت الأدلة العديدة — سواء أكانت أخلاقية أم تاريخية ، أم علمية ، أم لغوية ، أم سيكلوجية ، أم دينية — أن الكاثوليكية ، ملأى بالأغلاط الواضحة » .

ولم يمكنه أن يقول ما قال القديس « اوغسطين » مما يعتبر شعار كل مسيحى :

« اننى أومن بذلك : لأن ذلك غير معقول » (٢) .

وثار شعوره الدينى على أوضاع مبهمة ، والفاظ غامضة ، ومشاكل لا تحل ، وانتهى به المطاف ، بعد بحث وجدل ومناظرات

---

(١) عن « أشعة خاصة بنور الاسلام » .

(٢) لا شك أن « دينيه » اطلع على مؤلفات « رينان » الذى كتب عن المسيح ، عليه السلام ، كتابا يثبت فيه : « أن السيد المسيح لم يكن الها ولا ابن اله ، وانما هو انسان يمتاز بالخلق السامى والروح الكريمة » . و « رينان » لم يكن متطرفا فى حكمه ، فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجودا تاريخيا حقيقيا ، ولكن آخرين أخذوا ينقبون فى بطون الكتب ، ويتتبعون الروايات ، فانتهوا الى عدم الاطمئنان لوجود المسيح تاريخيا ، من هؤلاء « بايبه » أستاذ علم الاجتماع بجامعة « السوربون » ، الذى اشترك مع زميلين له فى تأليف كتاب يهدف الى اثبات أن المسيح أسطورة وأن انتشار المسيحية لم يكن الا لاسباب سياسية بحتة ، أما الاستاذ « جينيبيو » ، أستاذ تاريخ الاديان بالسوربون الى عهد قريب ، فقد أثبت فى عدة مؤلفات ذات شهرة عالمية — أثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أن المسيحية الحالية ليست هى مسيحية المسيح ، بل لا تمت الى مسيحية المسيح بصلة ، اللهم الا الصلة الاسمية .

وتأملات ، الى رفض المسيحية ، وبلغت حيرته حينئذ أشـدها ؛ ولكن اليأس لم يتطرق الى نفسه قط ، واذا لم يجد الهـداية فى المسيحية فليس معنى ذلك أنه لن يجدها مطلقا ؛

ان الحقيقة عزيزة المنال ، ولكنها موجودة ، والسبيل اليها : البحث .

الالتجاء الى العقل :

ورأى « دينيه » أن يتجه الى العقل ، يستمد منه الهداية الى الطريق المستقيم ، ولكنه انتهى الى أن العقل عاجز فى ميـدان ما وراء الطبيعة ، وفى الواقع : يسعى كثير من ذوى العقول المستنيرة ـ بعد أن أفاقوا من غفلتهم ، وبعد أن رأوا اخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة ـ لتعرف طريق الهداية ، وأن مذهب الحدس الذى يتهافتون عليه خلف حامل لوائه المسيو « برجسون » الشهير ، هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو هو ـ وهو الأصح ـ رد فعل لعجز هذا المذهب .

فقد حدد هذا المفكر ـ فى قلوب الناس النهمين الى الايمان ـ آمالا كان يظهر أنها ضاعت ضياعا نهائيا ، فهو يأذن لهم بأن يأملوا فى خلود الروح ، ويقول لهم :

ان الدنيا ليست مشتبكا عظيما لقوى عمياء ، وان العقل ليس هو الطريقة الوحيدة للمعرفة (١) .

أخفقت المسيحية فى ارضاء ضميره الدينى ، واخفق العقل فى قيادته الى النور ، الام يتجه اذن ؟

المسيحيون الذين أسلموا :

وتلفت حوله ونظر : ماذا فعل أمثـاله ممن شكوا فى المسيحية وشكوا فى العقل ؟

---

(١) ناصر الدين : محمد .

فرأى : أن نفرا من النصارى فى مختلف الأقطار الأوربية دانوا بالاســلام فى الاعوام الأخيرة .. ويكثر عــددهم على مر الايام ، وفى لندن وليفربول جماعات اسلامية ذات شأن حقيقى ، منهم فريق من أعيان الانجليز (١) .

ورأى : أن الذين يعتنقون الاسلام فى وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم ، انما هم من الخاصة سواء كانوا فى الهيئات الاجتماعيــة الأوربية ، أو الأمريكية ، كما أن اخلاصهم فى ذلك لا شـــك فيه ، لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية (٢) .

وتبين له : انه يوجد فى جميع انحــاء أوربا وأمريكا من اعتنقوا الاسلام ، واذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية اذا نظرنا الى قلة عدد المعتنقين ـ وأن كان عددهم لا بأس به ـ فانه ذو أهمية كبرى ، نظـــرا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون الى الطبقـــات الراقية المتعلمة ، ونذكر منهم على سبيل المثال : « اللورد هيدلى » الانجليزى ، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم « كرستيان شرفيس » أحد تلاميذ « اغسست كومت » وأديبا من أدباء فرنسا المعــدودين ، وفيلسوفا من فلاسفتها المشهورين » (٣) .

ومما لاريب فيه : أن هنـــاك مفكرين منصـــفين ـ لاغربيين فحسب ـ بل عالميين أيضا ، درسوا الاسلام دراسة عميقة ، فأحبه البعض وناصره ، وآمن به البعض الآخر ، وأعلن اسلامه ، وصدق فيه .

ويقول أحدهم (٤) :

---

(١) ناصر الدين : الشرق فى نظر الغرب .

(٢) اشعة خاصة بنور الاسلام .

(٣) الحج الى بيت الله الحرام ، لناصر الدين ، ترجمة م . توفيق أحمد .

(٤) اللورد « هيدلى » .

« انني اعتقد أن هناك آلافا من الرجال والنساء أيضا ، مسلمون قلبا ، ولكن خوف الانتقاد ، والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشىء عن التغيير ، تآمروا على منعهم من اظهار معتقداتهم » .

ونحب أن نعرض فيما يلى لأمثلة من هؤلاء المفكرين المنصفين الذين لا شك انهم قد قرأ لهم « دينيه » وتتبع آراءهم .

الشيخ عبد الواحد يحيى :

ولعل « دينيه » قد اتصل فى أواخر حياته بمفكر آخر من أعلام المفكرين ، هو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفى « رينيه جينو » الذى يدوى اسمه فى أوربا قاطبة ، وفى أمريكا ، والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون بالدراسات الفلسفية والدينية .

وقد كان اسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقتدوا به ، واعتنقوا الاسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة ، تعبد الله على يقين فى معاقل الكاثوليكية فى الغرب .

وكان سبب اسلامه بسيطا منطقيا فى آن واحد :

لقد اراد أن يعتصم بنص مقدس ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد ـ بعد دراسة عميقة ـ سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف ولا التبديل ، لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

لم يجد سوى القرآن نصا مقدسا صحيحا ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن النفسانى فى رحاب الفرقان .

ومؤلفاته كثيرة مشهورة ، من بينها كتاب « أزمة العالم الحديث » بين فيه الانحراف الذى تسير فيه أوربا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » ، فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل شرقى يفخر بشرقيته . وقد رد فيه الى الشرق اعتباره ، مبينا أصالته فى الحضارة ، وسموه فى التفكير ، وانسانيته التى لاتقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء ، وعدوانه الذى لايقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهرا فى كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهما يتفق مع الفضيلة ومع أسمى المبادىء الانسانية ...

وقد كتبنا عنه تقريرا لاحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، ننشره فيما يلى :

« رينيه جينو : من الشخصيات التى أخذت مكانها فى التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الامام الغزالى وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار افلوطين ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

« واذا كان الشخص ، فى بيئتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذى يستحقه الا بعد وفاته ، فقد كان من حسن حظ « رينيـه جينو » انه قدر أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته ، أما فى أثناء حياته ، فكان أول تقدير له : ان حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا الا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت فى « رينيه جينو » خطرا يكبر كل خطر سابق ، فحرمت حتى الحديث عنـه .

« واذا كان هذا تقديرا سلبيا له قيمته ، فهناك التقـدير الايجابى ، الذى لا يقل فى أهميته عن التقدير السلبى ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا للدعوة « رينيه جينو » فألفوا جمعيات فى جميع العواصم الكبرى فى العـالم ، وعلى الخصوص فى سويسرا ، وفى فرنسا . والمكونون لهذه الجمعيات احتذوا حذو « رينيه جينو » فاتخذوا الاسلام دينا ، والطهارة والاخلاص وطاعة الله ،

شعارا وديدنا ، ويكونون ، وسط هذه المادة السابقة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة يلجأ اليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الايجابى أيضا ، أن كتبه ، رغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت فى جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها الى جميع اللغات الحية الناهضة ، ماعدا العربية للأسف الشديد .

« ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم الى لغة الهند الصينية ، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا « الدالاى لاما » ، ولم يكن يوجد فى الغرب شخص متخصص فى تاريخ الأديان ، الا وهو على علم بآراء « رينيه جينو » » .

« كل هذا التقدير ، كان فى حياته » .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير : لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ، ومنها بعض الصحف المصرية العربية .

وقد خصصت له مجلة : « فرنسا ـ آسيا » ، وهى مجلة محترمة . عددا ضخما ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير كاتب فرنسا الأكبر ، « أندريه جيد » ، وقوله فى صراحة لا لبس فيها : ان آراء « رينيه جينو » لاتنقض .

وخصصت مجلة « ايتودترا ديسيونيل » ، وهى المجلة التى تعتبر فى الغرب كله لسان التصوف الصحيح ، عددا ضخما من أعدادها ، كتب فيه أيضا كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفى الشهير ، « بول سيران » ، كتابا ضخما تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ، ووضعه ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه ، فى المكان اللائق به ، بجوار الامام الغزالى أو الحكيم أفلاطون .

نشأ « رينيه جينو » فى فرنسا من اسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجها بطبيعته ، الى التفكير العميق والابحاث الدقيقة ، وهاله ، حينما نضج تفكيره ، ما عليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث فى جد عن الحقيقة ، ولكن أين هى ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ وهل هى فى السماء أو فى الأرض ؟

أين الحقيقة ؟

سؤال وجهه « رينيه جينو » الى نفسه كما وجهه من قبل الى نفسه الامام المحاسبى ، والامام الغزالى ، والامام محيى الدين ابن عربى ، وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستنيموا للتقليد الأعمى ... وتأتى فترة الشك والحيرة والألم الممض ، ثم يأتى عون الله ، وكان عون الله ، بالنسبة الى « رينيه جينو » أن بهرته أشعة الاسلام الخالدة ، وغمره ضياؤه الباهر ، فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى ، وأصبح جنديا من جنوده يدافع عنه ، ويدعو اليه .

ومن أمثلة ذلك ما كتبه فى كتابه « رمزية الصليب » تفنيدا للفرية التى تقول :

ان الاسلام انتشر بالسيف : ومن أمثلة ذلك أيضا ، ما كتبه فى مجلة « كاييه دى سود » فى عددها الخاص بالاسلام والغرب ، دفاعا عن الروحانية الأسلامية : لقد أنكر الغربيون روحانية الاسلام ، أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية ، وأكبروا من شأنها ووضعوا التصوف المسيحى فى أسمى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الاسلامى : فكتب الشيخ عبد الواحد يحيى ، مبينا سمو التصوف الاسلامى وروعته ، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحى ، أو « المستيسزم » ، وانتهى بأن هذا « المستيسزم »

لا يمكنه أن يبلغ ، ولا عن بعد ، ما بلغه التصوف الاسلامى من سمو ، ومن جلال .

على أن الشيخ عبد الواحد يحيى ، لم يشد بالاسلام فحسب ، وانما أشاد فى جميع كتبه ، وفى مواضع لا يأتى عليها الحصر بالشرق .

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين : انهم أقل حضارة ، بل أقل انسانية من الغربيين .. وأتى الشيخ عبد الواحد ، فقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وانهم منبع النور والهداية ، ومشرق الوحى والالهام :

ولقد كتب الشيخ عبد الواحد مقالا مستفيضا بعنوان :

اثر الثقافة الاسلامية فى الغرب

بين فيه فضل الثقافة الاسلامية على أوربا ، يقول :

ان كثيرا من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الاسلامية أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية فى القرون الماضية ، بل ربما لم يدركوا منهما شيئا مطلقا ، وذلك لأن الحقائق التى تلقى اليهم ، حقائق مشوهة ، حظها من الصحة قليل . فانها تبالغ كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الاسلامية والتقليل من قدر المدنية العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك .

ويلاحظ أن دراسة التاريخ فى المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير . بل ان الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف قصدا فى كثير من الحوادث عظيمة الشأن جليلة الخطر .

مثال ذلك ما هو شائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الاسلامى عدة قرون ، بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط ، أن صقلية والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الاسلامى

الاسلامية قد تناول لدرجة بعيدة وبشكل محسوس ، كل العلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وغير ذلك . وقد كانت بلاد الاسبان مركز الوسط الهام الذى انتشرت منه تلك الحضارة . وليس غرضنا الآن أن نفحص كل هذه الانواع بالتفصيل ، ونرى مقدار ما خلفته الثقافة الاسلامية فيها ، ولكنا نركز بحثنا فى بعض نقط نعتقد انها من الأهمية بمكان ، وان قل من يدركها فى وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل أن نفرق بين العلوم الطبيعيـة ، والعـلوم الرياضـية ، فأما عن الأولى فانا نعلم علم اليقين انها انتقلت بكلياتها وجزئياتها الى أوربا عن طريق الحضارة الاسلامية مصبوغة بالصبغة الاسلامية تماما . فالكيميـاء احتفظت دائما باسمها العربى الذى يرجع أصله الى مصر القديمة ، والذى كان له معنى من اعمق المعاني التى لم يعرفها الكيمائيون الحديثون حقيقة.

ولنضرب مثلا آخر ، ذلك علم الفلك فان أكثر اصـطلاحاته الخاصة ما تزال محتفظة فى كل اللغات الأوربية بأصلها العربى ، كما ان كثيرا من النجوم ما يزال علماء الفلك فى كل الأمم يطلقون عليها أسماءها العربية .

وهذا يرجع الى أن مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء ، مثل بطليموس الاسكندرية ، كانت معروفة فى التراجم العربية ومجتمعة مع المؤلفات الاسلامية .

ومن السهل جدا أن نوضح أن كثيرا من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة فى آسـيا وافريقيا عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيرا من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة .

ايضا . وربما عزا البعض هذا الاهمال من المؤرخين الى تعصبهم الديني ، ولكن ما هي حجة المؤرخين المعاصرين - وغالبهم لا ديني - في موافقتهم أسلافهم في قلب الحقائق ؟ لهذا ينبغي أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن ادراك الحقائق الصحيحة، ومقدار ما هم مدينون به للشرق . والأغرب من ذلك كله أنه بينما يعتبر الأوربيون أنفسهم الورثة المباشرين للمدنية اليونانية القديمة ، فان الحق يدحض زعمهم هذا : اذ أن الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا أن علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل الى الأوربيين الا بواسطة المسلمين ، وبعبارة أخرى ، لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين الى الغرب ، الا بعد أن درسها الشرق .

ولولا علماء الاسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمنا طويلا بل ربما لم يدركوها كلية . وينبغي أن نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الاسلامية ، لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض أحيانا ، وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الاسلامية لم يكونوا من العرب الخلص ، واذا كانت لغتهم عربية ، فان ذلك ناتج عن تأثرهم بدينهم الاسلامي ، وما دمنا قد ذكرنا اللغة العربية ، فاننا نلاحظ دليلا واضحا يثبت لنا انتقال المؤثرات الاسلامية في الغرب : وهو تلك الكلمات العربية الأصل والمنبت التي تستعمل تقريبا في كل اللغات الأوربية ، بل مازالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على أن معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل .

وبما أن الكلمات هي التي تستعمل لنقل الأفكار ، واظهار ما تكنه النفوس ، فان من السهل علينا جدا أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الأسلامية نفسها ، وفي الحق أن تأثير الحضارة

أما من ناحية الاختراعات — وهى تابعة للعلوم الطبيعية — فقد انتقلت أيضا بنفس الطريق أى بواسطة المسلمين . وما تزال قصة الساعة المائية التى أهداها الخليفة هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمان عالقة بالأذهان ثابتة الوقائع .

أما الرياضيات فيجب أن نعيرها التفاتا خاصا ، وذلك لأهميتها فى هذا البحث ، فان ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ، بل نرى فيه أكبر الأثر للثقافة الاسلامية ، مضافا اليها علوم الهند أيضا . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال فى الهندسة وعلم الأرقام . ويلاحظ أن الأخير يرتبط دائما مع الاول فى الاشكال عليها اسماءها العربية .

وهذا التفوق الذى كان للهندسة يظهر لنا جليا فى الجملة التى حفرها أفلاطون على مدخل مدرسته : (لا يدخله الا عالم بالهندسة)

ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الأرقام ولكنه لم يكن معروفا — كالعلوم الأخرى — فى اللغات الاوربية بالاسم اليونانى : لأنه لم يكن معروفا بين اليونانيين القدماء : هذا هو علم الجبر الذى كان مصدره الأول الهند . والذى يسهل علينا من اسمه العربى أن نعرف طريق انتقاله الى الغرب .

حقيقة أخرى حان حين ذكرها ولو انها قليلة الاهمية ، ولكنها تدل أيضا على ما قدمنا ، وهى أنه من الشائع فى كل مكان انالارقام التى يستعملها الاوربيون هى نفس الارقام التى استعملها العرب ، ولو أن مصدرها الاول هو الهند ، لأن علامات العد التى كان العرب يستعملونها قديما ما هى الا حروف الهجاء نفسها .

واذا انتقلنا من بحث العلوم الى بحث الفنون ، فاننا نلاحظ أن كثيرا من المعانى التى جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين فى الأدب والشعر ، قد أخذت واستعملت فى الأدب الغربى ، بل اكثر من هذا فان بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم .

وكذلك نلاحظ ان أثر الثقافة الاسلامية واضح كل الوضوح وبصفة خاصة فى فن البناء ، وذلك فى العصــور الوسطى : فمن ذلك شكل القوس المعقود الذى صار متميزا بنفســه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها . وقد كان مصدره فن البناء الاسلامى ولو أن كثيرا من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة . ومما هدم هــذه النظريات وجود رواية يتناقلها دائما البناؤن أنفسهم ، وهى تثبت انتقال هذه الطريقة من الشرق . وقد كان لهذه الحقيقة صفة سرية جعلت لفتهم معنى ومزيا ، فكانت ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الأرقام . وقد نسب هذا العلم فى مصدره الاول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان .

ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما ان يكون انتقاله الى أوربا الا بواسطة العالم الاسلامى . ومما يحسن ذكره أن هؤلاء المعماريين ـ وقد كانوا هيئات متحدة لها شعائر خاصة ـ كانوا يعتبرون انفسهم كأنهم أجانب فى الغرب حتى فى مساقط رؤوسهم . وقد ظلت هذه التسمية حتى الان ، على ان هذه الأمور صارت غير معروفة الا للقليلين جدا .

فى هذه النظرة العجلى ، ينبغى أن نذكر بصفة خاصة نوعا آخر هو الفلسفة . فقد بلغ التأثر الاسلامى فى القرون الوسطى مبلغا عظيما لم يستطع أشد خصوم الشرق تعصبا أن ينكر قوته ، وهذا صحيح ، فان أوربا لم يكن فيها من وسـيلة أخرى لمعرفة الفلسفة اليونانية فى ذلك الزمن ، وذلك لان التراجم اللاتينية لافلاطون وارسطو ــ وهى التى استعملت حينئذ ــ لم تنقل أوتترجم من الأصل اليونانى مباشرة ، بل أخذت من الترجمة العربية السالفة واضافوا اليها ما كتبه المعاصرون المسلمون فى الفلسفة الاسلامية . ومن أولئك المعاصرين : ابن رشد ، وابن سـينا ، وغيرهما .

والفلسفة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت باسم « الفلسفة المدرسية » كانت تتميز بها الفلسفة الاسلامية واليهودية والمسيحية

ولكن من الاسلامية استمد النوعان الآخران مصدرهما ، بل ان الفلسفة اليهودية وهى التى ازدهرت فى اسـبانيا كانت لغتها عربية .

وذلك ثابت ، ويرى فى المؤلفات الهامة لموسى بن ميمون وعنه نقل فيلسوف يهودى آخر ــ بعد قرون عديدة ــ كثيرا من فلسفته الخاصة ذلك هو :

(سپنوزا) :

وليس من الضرورى أن نصر على بحث أشياء معلومة لكل من

درس شيئا من تاريخ الفكر ، بل يحسن أن نبحث أخيرا فى أشياء أخرى من نوع مختلف لا يعـرفه معظم الحديثين ، خصوصا فى الغرب ، بل لا يكاد يكون لأحد ما أية فكرة ذات أهمية عنه ».

ولكن من وجهة نظرنا نرى له أهمية كبرى أكثر من كل المعارف الخارجية التى تحتويها العلوم والفلسفة ، وما نقصـده بهذا هو التصرف وما يتصل به أو يعتمد عليه من أنواع المعرفة الاخـرى الثانوية التى تختلف عن تلك العلوم التى يدرسها الحديثون كل الاختلاف ».

وليس للغرب فى وقتنا هذا شيء من أمثال تلك العلوم على حقيقتها ، بل أكثر من هذا ان الغرب لا يعرف أيضا من المعارف الحقة كالتصوف ، أو ما يماثله ، شيئا مطلقا . على أن هذه الحال لم تكن هى الحال فى القرون الوسطى . وهذه المعارف لها أيضا أثرها الاسلامى البين الواضح بأجلى وضوح فى تلك العصور . ومن السهل جدا ملاحظة أثر ذلك فى بعض المؤلفات التى تختلف معانيها الحقيقية من الثمرات الأدبية كل الاختلاف ».

وقد بدأ هذا النوع يتضح لبعض الأوربيين أنفسهم ، وذلك خلال دراساتهم لاشعار « دانتى » الايطالى ، ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحقة ، ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الأسبانى « دون ميجيل آسين بلاثيوس » كتابا عن المؤثرات الاسلامية فى مؤلفات « دانتى » جاء فيه أن جزءا كبيرا من الرموز ، والاشارات التى

استعملها « دانتي » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب المسلمين ، وبخاصة سيدى محيى الدين بن عربى ، ولكن لسوء الحظ نرى أن ملاحظاته لم تتعد التخيلات الشعرية . على أن هناك كاتبا آخر ايطالى الجنس هو « لويجى فاللى » الذى توفى حديثا ، تعمق بعض التعمق فى البحث ، فذكر أن دانتي لم يكن وحده الذى استعمل الاشارات المماثلة لما كان مستعملا فى الشعر الصوفى الفارسى والعربى ، بل ان كثيرا من الشعراء المعاصرين لدانتى فى مملكته كانوا أعضاء فى اتحاد أو هيئة سرية تسمى « أمناء الحب » وكان دانتي نفسه أحد رؤساء تلك الهيئة .

ولما حاول « لويجى فاللى » أن يحل ألغاز لغتهم السرية لم يتمكن من ادراك ما كانت تتميز به تلك الهيئة أو ما يماثلها من الهيئات التى وجدت فى أوربا أيام القرون الوسطى ، على أن الحق هو أن بعض الشخصيات السرية كانت تستتر خلف تلك الهيئات لتكون مصدر ارشاد لها . وقد كانت تلك الشخصيات السرية تعرف بأسماء مختلفة من أهمها تلك التسمية « اخوان الوردة والصليب » وليس لهؤلاء قواعد مكتوبة يسيرون عليها .

كذلك لم يكن لهم اجتماعات معينة . وكل ما كانوا يعرفون به هو أنهم وصلوا الى حالات روحية خاصة . ويمكننا ان نصفهم بأنهم صوفيون غربيون أو على الاقل متصوفة فى درجات عالية .

وقد قيل : ان هؤلاء « الاخوان » الذين كانوا يتسترون بألبسة

البنائين ورموزهم كانوا يعلمون الكيمياء ، وعلوما أخرى تماثل ما كان مزدهرا من العلوم فى العالم الاسلامى .

وفى الحق انهم كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، وكانوا على اتصال مباشر بالصوفيين المسلمين . وقد كان ذلك الاتصال يستتر وراء رحلات مؤسسهم الخيالى . وليس هذا معروفا فى التاريخ الذى لا يتعمق كثيرا فى البحث ، بل يكتفى فقط بمظهر الحوادث الخارجى ، مع ان هناك المفتاح الحقيقى الذى يفتح لنا مغاليق كثير من الاشياء ، ولولاه لاستمرت دائما غير واضحة بالمرة

هذا جزء من كل من أثر الثقافة الأسلامية فى الغرب . ولكن الغربيين لا يريدون أن يعترفوا به فى وضوح ، لانهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرق عليهم ، ولكن الزمن كفيل بتبيان الحقائق التى يريدون اخفاءها » .

وأثر الحضارة الأسلامية على أوربا موضوع كتب فيه الآن كثيرون من زاويا مختلفة ، ونحب الآن أن نضيف الى ماكتبه الشيخ عبد الواحد ، رأى الاستاذ بريفولت . وقد أورده الدكتور محمد اقبال فى كتابه بناء الانسانية ، وقدم له مقدمة تبين أن الاسلام دعا الى التجربة والملاحظة والاستقراء ، أى انه دعا الى المنهج العلمى الحديث فانتشر فى ربوع الحضارة الأسلامية ، ثم انتقل من حضارة الاسلام ، غازيا أوربا ، فكان السبب فى نهضتها ، ثم يقول : فالزعم بأن أوربا هى التى استحدثت المنهج التجريبى ، زعم خاطىء يقول دوهرنج : « ان آراء روجربيكون ، فى العلوم ، أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور » .

ومن أين استقى روجربيكون ما حصله في العلوم ؟ من الجامعات الاسلامية في الأندلس . والقسم الخامس من كتابه الذى خصصه للبحث في البصريات هو في حقيقة الامر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وكتاب بيكون ، في جملته ، شــاهد ناطق على تأثره بابن حــزم .

لقد كانت أوربا بطيئة نوعا ما في ادراك الاصل الاسلامى لمنهجها العلمى ، وأخيرا جاء الاعتراف بهذه الحقيقة ، وسأتلو عليكم فقرة أو فقرتين من كتاب : « بناء الانسانية » الذى ألفه بريفولت .

يقول بريفولت :

ان روجربيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ، والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق في أن ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبى . فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هي طرف من التحريف الهائل لاصول الحضارة الاوربية .

وقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

ان العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفوانها الا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام .

ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد الى أوربا الحياة ، بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الاوربية (ص ٢٠٢) فانه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى الا ويمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة ، فان هـذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون ، فى نشأة الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره ــ أى فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى . (ص ١٩٠) ..

ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، انه يدين لها بوجوده نفسه.

فالعالم القديم ، كما رأينا ، لم يكن للعلم فيه وجود .

وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم ، كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب ، وعمموا الأحكام ، ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الايجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحقة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى ، ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم الا فى الاسكندرية فى عهدها الهلينى .

أما ما ندعوه العلم ، فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ، ولتطور الرياضيات الى صورة ، لم يعرفها اليونان .

وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب الى العالم الاوربى (ص ١٩٠) اهـ

« الدكتور جرينييه » :

قال الرحالة السيد محمود سالم ، فى مقال له ، نشر فى مجلة المنار ، مجلد ١٤ ص ٥١٨ :

قصدت فى سياحاتى مدينة « بونتارليه » لمقابلة الدكتور « جرينييه » المسلم الفرنساوى الشهير ، الذى كان فى السابق عضوا فى مجلس النواب ، قابلته لاجل أن أسأله عن سبب اسلامه . فقال :

انى تتبعت كل الايات القرآنية ، التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية ، والتى درستها من صغرى ، وأعلمها جيدا ، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة ، فاسلمت لانى تيقنت أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون معلم . أو مدرس من البشر ، ولو أن كل صاحب فن من الفنون ، أو علم من العلوم ، قارن كل الايات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيدا ، كما قارنت أنا .. لاسلم بلا شك ، ان كان عاقلا خاليا من الأغراض .

لماذا أسلم دينيه ؟ :

ولنعد الى « دينيه » فنتساءل : كيف ، ولماذا أسلم ؟

وما الميزات والخصائص التى جعلته يمنح الاسلام من الثقة ما لم يمنحه للمسيحية ؟

لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور فى نفسه ، عندما وقعت فى يده نسخة من مجلة انجليزية ، فاذا به يجد فيها جوابا ، عن أسئلته ، اذ قرأ فيها :

لماذا صار بعض الانجليز وغيرهم من الاوربيين مسلمين ؟

ذلك لانهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة ، عمليـة فى جوهرها ـ لاننا معاشر الانجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الارض تشبثا بالعمل ـ عقيدة تكون ملائمة لاحوال جميـع الشـعوب وعاداتهم وأعمالهم ، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط .

أحق هذا ؟

ان « دينيه » لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة ، واذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل الى ما وراء الطبيعة ، فانه مع ذلك الأداة التى ترشدنا الى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور ، فأخذ يزن الامور .. وأخذ يبحث ..

أحق ان الاسلام « هو العقيدة الدينية الصحيحة » ؟

صلاحية العقيدة الاسلامية لكل زمان ومكان :

وكان من التوفيق أن سـافر « دينيـه » اذ ذاك الى الجزائر ، وتنقل فى بلاد المغرب ، فخالط المسلمين وعاشرهم ، وسـمع منهم ، وسـألهم وناقشهم ، وفكر وتأمل ، فرأى ، كما يذكر فى رسـالته « أشعة خاصة بنور الاسلام » :

ان العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الاسلام ، وفى الوقت نفسه حر التفكير .

وكما أن الاسلام قد صلح ـ منذ نشأته ـ لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل انواع العقليات وجميع درجات المدنيات ، وأن تعاليم المعتزلة ، ذات القرابة المستترة والصلة الخفية ، بتعاليم الصوفية ، تجد مكانا رحبا ، وقبولا حسنا ، ورضاء سهلا ، سواء عند العالم الأوربى ، أو عند الزنجى الافريقى ، وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ، ومن معبوداته وأصنامه ..

« وبينما تجد الاسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى اسواق لندن ، حيث مبدأ القوم « الوقت من ذهب » اذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الرومانى » .

وكما يتقبله ـ عن رضا ـ ذلك الشرقى ، ذو التأملات ، ورب الخيال ، اذ يهواه ذلك الغربى الذى أفناه الفن ، وتملكه الشعر (١) .

لقد وقرت هذه الفكرة فى نفس « دينيه » حتى أنه ليرددها فى الكثير من كتبه فيما بعد ، يقول فى آخر كتابه الحج الى بيت الله الحرام :

« لو كان الاسلام الحقيقى معروفا فى أوربا ، لكان من المحتمل أن ينال ـ اكثر من أى دين آخر ـ من العطف ، والتأييد ، من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فانه ـ والحق يقال ـ يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم ، فهو ببساطته المتناهية ـ كما يذهب اليه المعتزلة ـ وباشتماله على روح التصوف ـ كما يذهب اليه الصوفية ـ يهدى علماء أوربا وآسيا الى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم .

كما أنه تعزية وهدى لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية .

---

(١) عن « اشعة خاصة بنور الاسلام » .

ويرقى بروح ذلك التاجر الانجليزى ، رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب ، كما يرقى بروح الفيلسوف المتـــدين ، ويسمو بنفس الغربى الشغوف بالفن والشـعر ، بل هو يسحر لب الطبيب العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم ، وبما فى الصـلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معـا ، وفى وسع حر الفكر ـ وهو ليس ملحدا حتما ـ أن يعتبر الوحى الاسلامى عملا من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها « الالهام » وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما انه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيغها العقل (١) » .

ويردد الفكرة نفسها فى كتابه عن حيـــاة ســيدنا محمد ، لقد رسخت هذه الفكرة فى نفســه من أول وهلة ، واستمرت معــه الى نهاية حياته :

لقد وقر فى ذهنه ، أن الاسلام دين عام خالد .

الموازنة بين الاسلام والمسيحية :

ولكنــه لأجل أن يتبين ـ فى وضوح ـ الفـروق الجوهرية بين الاسلام والمسيحية ، ولأجل أن يصل الى الحد الأسمى ، فيما يتعلق بالاخلاص لضميره الدينى ، أخذ يوازن موازنة قيمة بين الاســـلام والمسيحية فراى :

(أ) فيما يتعلق بالاله :

« الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخــذ فيــه الاله شكلا بشريا ، أو ما الى ذلك من الأشكال .

أما فى المسيحية فان لفظة « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية ، لرجل شـــيخ طاعن فى السن قد بانت عليـــه جميـــع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، الى لحية بيضاء

---

(١) من كتاب « الحج الى بيت الله الحرام » .

مرسلة مهملة تثير فى النفس ذكرى الموت والفنـاء ، ونسمع القـوم يصيحون « ليحيا الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون الى زمر الأبدية الدائمة ، وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهـلاك والفنـاء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك « يا هو » ، الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهـودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهـالكة ، وكذلك تراه فى متحف « الفاتيكان » وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما « الله » فى دين الاسلام الذى حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته ازميـله ، ذلك لأن « الله » لم يخلق الخلق على صورته ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يكن له كفوا أحد (1) » .

(ب) فيما يتعلق بالصلاة والنظافة :

ان الحركات والاشارات فى الصلاة الاسلامية هى ذات بسـاطة ولطافة ونبالة ، لم يسبق لها مثيل من نوعها فى صلاة غيرها .

كما أنهـا لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيـون بالشخوص الى السماء ، واستنزال الدموع الذى تذكرنا بالدموع الجليسرينية ، التى يصطنعها ممثلو « السينما » فى عصرنا الحاضر . حقا ، ان الصورة الاسلامية خاليـة من تلك الأمور الشائنـة التى خصها المسيحيون بالصلاة المسيحية ، مما جعلهـا فى غير جمال ، ولا جلال ، ولا وقار .

والأقوال والحركات التى فى الصـلاة الاسلامية هى ذات دلالة على الرزانة والهدوء ، والاطمئنان ، وهى خاليـة من مبالغات الورع

---

(1) أشعة خاصة بنور الاسلام .

وتكلفات الخضوع ، والتظاهر بذلك مما هو غريب فى العبادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور ، وهو الغنى الحميد .

ثم ان من الأمور الغريبة تخصيص وجود الاله فى السماء عند دعوته ، وهذه الحال تحمل فى طياتها الحادا ، اذ تجعل السماء منفى الاله ، وتنفى بذلك عنه صفة الوجود فى كل مكان . وحركات الصلاة الاسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم ، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية ، فهى مفروضة الأداء خمس مرات فى اليوم الواحد ، وكم من شيخ كبير ، وبدين سمين ، يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة ، مما لا يستطيعه المسيحى فى مثل هذه السن ، أو فى مثل هذا الحال ما لم يكن قد روض على ذلك من قبل ، أضف الى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة ، ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة ، والنظافة من الايمان (١) » .

(جـ) فى التسامح :

يقول القس « ميشون » فى كتابه « سياحة دينية فى الشرق » :

« انه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة ، وهما أقدس قواعد الرحمة والاحسان عند الشعوب والأمم » .

(د) فى العلم :

رفع النبى محمد قدر العلم الى أعظم الدرجات وأعلى المراتب (٢) ، وجعله من أول واجبات المسلم ، وفى ذلك يقول صلى

---

(١) أشعة خاصة بنور الاسلام .

(٢) يقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين : « نهض الاسلام بالعقول من وهدة الخمول : واذن لها أن تبحث فى كل علم ، وتذهب فى البحث كل مذهب ، فوجدت الامم من العرب وغير العرب فى هذه السماحة ما أثار نشاطهم للبحث فى كل ناحية من نواحى العلم ، فلم يلبثوا أن جمعوا القرآن الكريم فى مصحف ، ودونوا الحديث النبوى بعد أن كان محفوظا فى الصدور ،

الله عليه وسلم :
« أطلبوا العلم ولو بالصين » .
و : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، بدم الشهداء » .
و : « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » .
و : « فضل العلم خير من فضل العبادة » (١) .
وقد نظر المسيو « كازانوفا » ، أحد كبار أساتذة الكوليج دي

وكتبوا فى تفسير القرآن ، وشرح السنة النبوية ، وحققوا النظر فى تقرير أصول الدين واصول الفقه ، وحرروا وجوه استنباط الاحكام العملية ، ووضعوا ازاءها العلوم العربية من النحو ، والصرف ، والبيان ، وفقه اللغة ، ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها ، فأصبحت بلاد الاسلام – ولا سيما عواصم الممالك ، كبغداد ، وقرطبة ، ومصر ، ودمشق ، وتونس – موارد العلوم الاسلامية والادبية والكونية . ومن هذه الموارد استحدثت الامم الاوربية معارفها وفنونها ، وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوربا المنصفين . قال الاستاذ بريفوت الانجليزى ، فى كتابه « تكوين الانسانية » فى القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الاسلام » ، وقال : ان رئيس دير كلوتي يأسف على أنه رأى أثناء اقامته بالاندلس الطلبة من فرنسا والمانيا وانجلترا ، يرون أفواجا أفواجا ، الى المراكز العلمية العربية » وقال : فالعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر »

« ولم يكن فضل الاسلام على أوربا من ناحية العلم فقط ، بلّ كان له الفضل فى نهضتها المدنية ، قال الاستاذ بريفوت فى الكتاب المذكور : « لم تكن ايطاليا مهدا لحياة أوربا الجديدة ، بل أسبانيا (الاندلس) لان أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة بينما العالم العربى ، بغداد والقاهرة ، وقرطبة ، وطليطلة كان مركز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكلّ ارتقاء انسانى جديد » .

وخلاصة الفصل : أن دعوة خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم ، قد أتت العالم بضروب خطيرة من الاصلاح لم تأته بها دعوة سبقتها أو تأخرت عنها فمما يوجد فى العالم من هداية صادقة ، أو علوم نافعة ، أو مدنية فاضلة ، فانما يوجد الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم .

« فليرفع الفتى المسلم رأسه معتزا بدين رفع الانسانية من حضيض الجهل الى أوج العلم ، وهداها سبلّ السعادة الباقية ، والمدنية المهذبة : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال أننى من المسلمين ؟ »

(١) الجزء الاول من كتاب الاحياء للغزالى .

فرانس بباريس فى هذه الكلمات الغاليـــات ، وكيف يقولها أحـد أصحاب الديانات ، فعلق على ذلك بقوله :

« يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنـا وهضم أفكارنا » ...

يعتقدون ذلك وينسون أن نبى الاسلام هو القـائل : بأن فضل العلم خير من فضل العبادة !!!

فأى رئيس دينى كبير ، أو أى قس من القساوسة العظام كانت له الجراة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل المتين ؟ !!

هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة :

نعم ان هذا هو مبدؤنا اليوم ، ولكن اليس العهـد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر الى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار ؟ !!

كما أنه سوف يقـال : ان أوضح مبـــادىء الحرية الفكرية قد كشفت أمثال « لوثير » و « كالفين » ، وعاد الفضل فيها الى رجل عربى من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الاسلام (١) .

(هـ) فى الفروسية :

وينظر المسيحيون الى « سان لويس » ، وكأنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجـة . غير أن الوثائق التاريخيـــة تثبت فى وضوح وسهولة ـــ أن خصمه صلاح الدين الأيوبى كان أرفع منـه قدرا فى الحضارة وفى الشجاعة ، وفى معاملة الخصوم .

والفروسية ونبالة قصـدها ، لم يكن يعرفها الاقدمون من اليونان ، والرومان ، ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ثم هذبها الاسلام وطهرها تطهيرا .

---

(١) من أشعة خاصة بنور الاسلام

وعلى أثره دخلت أوربا ووصلت الينا نحن الغربيين ، ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبتها الى العرب .

وقد ذكر العـــالم المسيحى المتدين « بارتلمى سان هيلار » فى سياق حديثه عن القرآن .

« ان العرب هم الذين يرجع اليهم الفضل على سادات أوربا ، وفرسانها ، فى القرون الوسطى ، فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ثم تعليمهم رقة العاطفة ، وتهذيب نفوسهم ، والرفعة بها الى حيثة الانسانية والنبـــالة ، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقــد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئا » .

ويخطىء من يظن أن هذا راجع الى المسيحية وحــدها رغم ما فيها من المزايا والفضائل .

(و) فى العبقريات العلمية :

ثم انهم يفخرون بالعالم « باستور » الفرنسى ، ويجعلونه درة فى تاج الحضارات الحديثة ، ولكن فاتهم أن « جابرا » و « الرازى » ، لا يقلان عنه فى مرتبة العلماء والمفكرين ، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم « الكيمياء » بفضل ما كشفاه من طرق التقطير ، ومن الكحول ، ومن « حمض النتريك » و « حمض الكبريتيك » (١) .

اســـلامه :

واستمر صاحبنـــا فى الموازنة والمقارنة ، والتـأمل والتفكير ، وأطال النقاش ، ثم أراد الله له أن يسلم .

وأسلم أتيين دينيه ، واختار اسم « ناصر الدين » ، وان هذا الاختيار لهو الذى يحدد اتجاهه بعد ذلك خير تحــديد ... ناصر الدين : انه حقا خصص حياته لنصرة الدين الاســـلامى ، ورأى أن نصرته انما تكون عن طريقين :

---

(١) عن أشعة خاصة بنور الاسلام

(أ) نصرته سياسيا .

(ب) نصرته دينيا .

أعداء الاسلام :

ان عنصرين من عناصر الشر يتألبان على الاسلام ، ويهاجمانه فى عرينه ، وهما :

رجال السياسة الاستعماريون ، ورجال الدين المتعصبون .

ولابد — لتكون نصرة الاسلام كاملة — من أن يتجه الدفاع نحو الهدفين ، وتطلع ناصر الدين نحو الغاية التى يريد أن يسعى اليها ، فهاله الأمر ، وكتب معبرا عن الواقع يقول :

« ان أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجموننا نحن المسلمين بالأباطيل ، ويحاربوننا بالمفتريات .. واذا نحن شئنا أن نحصى أكاذيبهم علينا ، كانت فيها صفحة هى أسود الصفحات فى سجل التعصب ، يشترك فى تسويدها أعداء الاسلام قديمهم وحديثهم ، سواء منهم العلماء ، والرواد ، والقساوسة ، ورجال الحكومات ، والكتاب ، أمثال بيرون وبلجراف ، وجلادستون ، وبرجليوس ، وقسيس كانتريرى ، والأب لامنس ، والكاتب لوى برتران سرفييه .. وغيرهم (١) » .

الانتصار للاسلام سياسيا :

أما ، والأمر كذلك ، فلابد من التشمير عن ساعد الجد ، والنهوض حقيقة فى وجه عوامل هدم الاسلام هذه ، ولكن كيف السبيل ؟

أما من جهة السياسة ، فان ناصر الدين ليس من الساسة المحترفين ، ولذلك كانت مهمته فى هذه الناحية التحدث الى كل

---

(١) من اشعة خاصة بنور الاسلام

من يجد فيه روح الانصاف من الغربيين ، ذوى النفوذ ، والعمل على اذاعة كل ما يمكنه اذاعته من آراء المنصفين منهم ، وتبنى قضية الشرق المظلوم .

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلا ، ما يلى :

« ونشر أخيرا المسيو « أوجين يونج » وكيل حكومة التونكين الفرنسية سابقا كتابا عنوانه « استعباد الاسلام — الحرب الصليبية الجديدة » . وهذا الكاتب معروف بأنه من الكاثوليك المتمسكين بدينهم ، ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسى من خيرة الفرنسيين ، وقد أنكر فى كتابه هذا ، فى كبير شجاعة وصراحة تلك الحروب الصليبية الجديدة التى يقوم بها اليوم « الفاتيكان » ، ذلك المركز الرئيسى المقدس ، حيث البابا الحبر الأعظم للمسيحية ، وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يفت فى عضدهم ملل أو كلل ، أو أن ينال منهم أى تهاون أو كسل ، وانما يقومون به من وراء ستار المداهنة ، وفى ثوب من الرياء يشف عما تحته .

ومما جاء فى كتاب المسيو « يونج » قوله :

« اننا نهيىء من اليوم مقدمات حرب دينية ، شديدة الفزع والهول » .

ثم أظهر ان مصالح فرنسا الحيوية انما هى فى التفاهم والاتفاق الودى مع الاسلام ، وانا لنرجو ان يكون لكلام هذا الفرنسى الكبير صدى بعيد واثر محمود فى مصلحة فرنسا ، والاسلام على السواء » (١)

ومن ناحية أخرى ، اخذ ينشر ما يصحح فكرة الأوربيين ، عن الشعوب الاسلامية ، ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الهمجية والتوحش ، وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة

---

(١) اشعة خاصة بنور الاسلام .

والفضائل المحمودة ، ويبين أن ماضيها المجيد خير نبراس يرسل أشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين ، فيزيل ما غشى عليها من ظلمة .

ويلفت نظر الفرنسيين ، فى قوة ، الى ما أداه لهم المسلمون من أياد جليلة فى ميدان الحروب ضد أعداء فرنسا .

ومن ألذع توجيهاته للفرنسيين فى هذا الميدان : أنه حينما ألف كتابه فى السيرة النبوية ، أهداه « لأرواح الجنود الاسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى ، وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين » .

الانتصار للاسلام علميا :

ومع ذلك فان ميدانه الفسيح انما كان الدفاع عن الاسلام ، باعتباره دينا سماويا ، لقد استمات فى الدفاع عن عقيدته التى يؤمن بها فى يقين حار مطمئن .

ومما زاد من قيمة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة الدقيقة بين الاسلام والمسيحية فى كثير من الأصول ، وفى كثير من الفروع .

لقد درس الاسلام فى عمق ، ودرس المسيحية فى عمق ، ورأى أن هجوم رجال الكنيسة لا يفتر ، وتزييفهم بالباطل لكل ميزة للاسلام لا ينقطع . فدافع واشتد فى دفاعه ، وهاجم ــ وكان لا بد من الهجوم ــ واشتد فى هجومه ، وتوالت ضرباته للمسيحية ممثلة فى رجال الكنيسة .. ولكنه كان يعلن دائما ــ كما هو الشأن فى كل مسلم ــ احترامه للمسيح : لأنه رسول الله ، واحترامه للمسيحية الصحيحة التى يتحدث عنها القرآن ، لا تلك التى ابتدعها رجال من بنى البشر .

كان يعلن دائما أن دين الله واحد ، وأن الاسلام أتى مصدقا لما سبقه مصححا لما ناله من تحريف ، مهيمنا عليه ، وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١)

فالقرآن فى العصر الحاضر ، هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لم ينله ــ ولن يناله ــ تحريف أو تبديل .

يقول الأستاذ راشد رستم ــ بحق ــ عن ناصر الدين :

« وانك لتجد الكاتب واسع الاطلاع ، لذلك هو صحيح الحجة ، ناهض البرهان . هو شديد الهجوم ، شديد الدفاع : ذلك لأنه غيور على دينه الذى لم يتخذه الا بعد أن بحث وفكر .

وهكذا كان فى عقيدته مكينا ، وفى اسلامه كاملا » (٢)

كان يصحح الأخطاء ، ويرد الهجوم ، ويهاجم ، ويوازن بين الاسلام والمسيحية ، وكان قبل ذلك وبعد كل ذلك ، يبين الاسلام ويوضحه ويشيد به .

وكانت وسيلته الى ذلك المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب فضلا عن الأحاديث الشفهية .

التعريف ببعض كتبه :

ومن كتبه فى ذلك :

١ ــ الرسالة القيمة « أشعة خاصة بنور الاسلام » وقد ترجمها ترجمة أدبية ممتازة الاستاذ راشد رستم ، وهى رد على الفكرة التى يذيعها القساوسة القائلة :

ان الاسلام لم يأت بجديد ، وقد انتفعنا بها انتفاعا عظيما ، وكانت لنا خير عون فى عملنا الحالى .

٢ ــ وآخر ما ألفه هو كتاب « الحج الى بيت الله الحرام » وقد

---

(١) سورة الحجر آية ٩

(٢) من أشعة خاصة بنور الاسلام

ترجمت خاتمته ونشرت فى مجلة جمعية الشبان المسلمين ، بقلم الأستاذ : م. توفيق أحمد ، وقد نقلنا بعضا من نصوصها فى ثنايا الكتاب الحاضر .

٣ - « الشرق كما يراه الغرب » وقد ترجمه الأستاذ عمر فاخورى ، ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان « آراء غربية فى مسائل شرقية » وقد استفدنا منه كثيرا فى البحث الراهن .

٤ - ومن أهم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول عليه السلام - وهو السيرة النبوية - فى مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية مع صديقه الجزائرى الحميم ، السيد الفاضل سليمان بن ابراهيم ، وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة ، يمثل فيها المناظر الاسلامية فى بلاد الجزائر ومعالم الدين فيها .

وطبعه طبعا غاية فى الاتقان والعناية ، وقدمه لأرواح الجنود الاسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى ، وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين (١) ، ونشره كذلك باللغة الانجليزية ، بنفس الحجم الكبير ، والاتقان التام .

والكتاب فى طبعتيه : قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية ، غاية فى الدقة والابداع ، وهى اللوحات التى قام بعملها خاصة السيد « محمد راسم » الجزائرى ، أشهر رجال الزخرفة العربية ببلاد الجزائر (٢) ، ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية ، وانها لخدمة جليلة للاسلام والمسلمين ، ونبى الاسلام مشكورة مذكورة (٣) .

---

(١) ولكن مما يؤسف له ، ان فرنسا جازت المسلمين على ذلك جزاء سنمار .

(٢) وقد اشار الى ذلك المسيو الازار بجامعة الجزائر ومدير متحف الجزائر ، وذلك فى المحاضرة التى القاها فى النادى الفرنسى بالقاهرة يوم ١١ مارس سنة ١٩٢٩ ، وهى المحاضرة الخاصة بالنهضة الفنية الجزائرية .

(٣) اشمة خاصة بنور الاسلام .

وفاته :

استمر ناصر الدين طيلة حياته يناضل عن الاسلام كدين ، ويناضل عن المسلمين كشعوب ، ويضع روحه ، وشعوره ، ووجدانه فى هذا الدفاع المجيد حتى ليكاد الاخلاص يتجسد خلال ما يسطره من عبارات .

وفى سنة ١٩٢٨ م قام السيد ناصر الدين بأداء فريضة الحج ، ووضع كتابه : « الحج الى بيت الله الحرام » .

وفى ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، توفى بباريس ، وصلى عليه بمسجدها الكبير بحضور كبار الشخصيات الاسلامية وغيرها ، ووزير المعارف بالنيابة عن الحكومة الفرنسية ، ثم نقل جثمانه الى بلاد الجزائر حيث دفن فى المقبرة التى بناها لنفسه ببلدة « بوسعادة » تنفيذا لوصيته (١) »

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام والمسلمين خيرا .

---

(١) دوزى : مسلمو الاندلس ، ج١ ، ص ٦٨

ناصر الدين والمستشرقون

حينما ألف السيد ناصر الدين كتابه عن حيــاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثارت ثورة النقاد متجهة ، على الخصوص ، الى الشكل ، لا الى الجوهر : لقد زعموا أن الأبحاث العلمية الحديثة قد وضحت جوانب من سيرة الرسول ، وأن المستشرقين فى مختلف الأقطار قد كتبوا عن سيرة سيدنا محمد كتابة تعتمد على الأبحاث العلمية الدقيقة ، ورأوا أن الأستاذ ناصر الدين لم يعبأ بشىء من ذلك ، وأخذوا عليه أنه لم يقم وزنا لانتاج المستشرقين فى الســيرة النبوية ، وأن اعتماده انما كان على السيرة القديمة ، كسيرة ابن هشام وابن سعد .

المستشرقون لا يفهمون السيرة النبوية :

والواقع أنه فعل ذلك ، وفعله متعمدا ، فقد كتب السيرة معتمداً على المنقول من الأخبار الاسلامية الصحيحة ، ولكنه فعل ذلك بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أنه لا يساوى شروى نقير .

لقد رأى أنه من المتعذر ، ان لم يكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ، ونزعاتهم المختلفة ، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبى والصحابة مبلغا يغشى على صورتهم الحقيقية ، من شدة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة ، ولقوانين البحث العلمى الجاد ، فانا نلمس من خلال كتابتهم :

محمدا يتحدث بلهجة المانية ، اذا كان المؤلف المانيا .

ومحمدا يتحدث بلهجة ايطالية ، اذا كان الكاتب ايطاليا .

وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، واذا بحثنا فى هذه السيرة عن الصورة الصحيحة ، فانا لا نكاد نجد لها من أثر !!

ان المستشرقين يقدمون الينا صورا خيالية ، هى أبعد ما تكون عن الحقيقة !!!

انها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التى يؤلفها أمثال « ولتر سكوت » و « اسكندر ديماس » . وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصا من أبناء قومهم ، فليس عليهم الا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة .

أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة ، فصوروهم حسب منطقهم الغربى ، وخيالهم العصرى .

وان الدكتور « سنوك هيرغرنجة » ليقول بحق ، فى نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » :

« اننا نرى أن الأستاذ « جريم » لو اقتصر على درس السير النبوية القديمة وبحثها فى عمق لكان أفضل ، وان الثمار التى كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهى أجدر ببلوغ الغاية التى توخاها ، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أن يظرف الناس بنبأ جديد ، ففشل فى وضع السيرة النبوية التى حاول فيها أن يطبع محمدا بطابع الروح الاشتراكى ، وفى جعل محمد اشتراكيا ، وفى أن تقود الاشتراكية نفسها محمدا لأن يضع الدين العربى الذى أتى به .

ان الاشتراكية الاسلامية ــ لا الاشتراكية الحديثة ، كما

يتصورها « جريم » ثمرة من ثمار الرسالة الاسلامية ، وليست الرسالة الاسلامية ثمرة الاشتراكية .

تخبط المستشرقين :

ولنضرب الآن بعض الأمثلة ، للنتائج التى توصل اليها المستشرقون فى ابحاثهم التى يزعمونها علمية صحيحة ، وسنضرب بعضها ببعض لتنهار ، ولو كانت علمية حقة لما اختلفت ، ولما تعارضت ، ولما كان مصيرها التلاشى :

١ ــ كيف كان خلق محمد ؟ وما هو السر فى تاثيره العظيم على ابناء وطنه ؟

عن هذا السؤال يجيب « دوزى » : لعل رسول الله ــ كما كان يلقب نفسه ــ لم يكن أسمى من مواطنيه ، ولكنه من المؤكد أنه لم يكن يشبههم .

كان صاحب خيال فى حين أن العرب مجردون عن الخيال ، وكان ذا طبيعة دينية ، ولم يكن العرب كذلك » (١)

ولا يرضى القسيس لامانس بهذا فيصرخ متأثرا بحقده الجارف ضد الاسلام ، ويقول :

« كان محمد ــ رغم معايبه ــ (معاذ الله) يفتن البدوى الذى كان يرى ذاته فى شخص النبى العربى ، كما يدعوه القرآن ، وفى هذا التفاعل ، أو فى هذه المطابقة العامة بين محمد وبيئته ، نجد أولا وقبل كل شىء السر فى هذا السلطان الضخم الذى كان لمحمد على مواطنيه (٢) .

٢ ــ سؤال آخر : ماذا كانت ميول محمد قبل البعثة ؟

يرى « دوزى » أن محمدا كان سوداوى المزاج يلتزم الصمت ،

---

(١) دوزى : مسلمو الاندلس ، ج ١ ، ص ٣٨ .
(٢) لامانس : مهد الاسلام ، ص ٤ ، ٥

ويميل الى التنزهات الطويلة فريدا ، والى التأملات المستغرقة فى شعاب مكة الموحشة .

ويرد القسيس لامانس ـ ضاربا بكل حقيقة عرض الحائط ـ :

« كلا ، ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلتـه ، فذلك لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة ، وكراهيته المشهورة للنسك »(١) .

٣ ـ وسؤال ثالث : ما هى العوامل فى بعثة محمد ورسالته ؟

انها نوبات الصرع كما يفترى « نلدكه » .

وكيف تكون نوبات الصرع عاملا فى البعثة ؟

سلوا عن ذلك « نلدكه » .

ولكن المستشرق « دوغويه » يعتقد : أن هذا بعيد الاحتمال ، ويعلل ذلك بأن الحافظة فى المصروعين تكون معطلة ، على حين أن حافظة محمد كانت غاية فى الجودة كلما هبط عليه الوحى » (٢) .

---

(١) لامانس : هل كان محمد صادقا ؟ ص ١

(٢) « دوغوية » مباحث شرقية ص ١٠ ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » ، ص ٤٠ : « ونعود الى تفنيد النقطة الاخيرة من رسالة ذلك المصرى المسلم ، فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبى كان يصـاب بالصرع ، وأن أعراضه كانت تبدو عليه ، اذ كان يغيب عن صوابه ، ويسيل منه العرق ، وتعتريه التشنجات ، ويخرج من فمه الرغوة ، حتى اذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول : انه وحى الله اليه ، فى حين انه لم يكن هذا الوحى الا أثرا من نوبات الصرع .

وتصور ما كان يبدو على محمد فى ساعات الوحى على هذا النحو : خاطىء من الناحية العلمية أفحش الخطأ ، فنوبة الصرع لا تدع عند من تصيبه أى ذكر لما مر به أثناءها ، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد افاقته من نوبتـه نسيانا تاما ، ولا يذكر شيئا مما صنع أو حل به خلالها ، ذلك لان حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل . هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم ، ولم يكن ذلك يصيب النبى العربى أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الاثناء تنبها لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه .

ولا نكاد ننتهى من هدم « نوبات الصرع » حتى يؤكد « اسبرفر » انها نوبات هيستريا اشتهرت باسم شوتلاين » (١)

ولكن « سنوك هرغرنجه » يرى أن هذه الأسس التى يراد أن تقام عليها البعثة أسس واهية ، ويقول :

يجب أن نقر بأن قيمة محمد انما هى ما يميزه عن سائر الهستيريين » .

ويدلى المستشرق « جريم » بدلوه هو الآخر ، فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هى التى قادت محمداً الى الرسالة .

هذا ثم ان نزول الوحى لم يكن يقترن حتما بالغيبوبة الجسيمة مع تنبه الادراك الروحى غاية التنبه ، بل كان كثيرا ما يحدث والنبى فى تمام يقظته العادية ، وحسبنا أن نشير الى ما أوردنا فى هذا الكتاب من نزول سورة الفتح عند قفول المسلمين من مكة الى يثرب بعد عهد الحديبية .

« ينفى العلم اذن أن الصرع كان يعترى محمداً ، ولذلك لم يقل به الا الاقلون من المستشرقين الذين افتروا على القرآن أنه حرف ، وهم لم يقولوا به حرصا على حقيقة يتلمسونها ، وانما قالوا به ظنا منهم أنهم يحطون من قدر النبى فى نظر طائفة من المسلمين ، أم حسبوا أنهم يلقون بأقوالهم هذه ظلا من الريبة على الوحى الذى نزل عليه ، لانه نزل عليه ـ فيما يزعمون ـ أثناء هذه النوبات ، أن يكن ذلك فهو الخطأ البين كما قدمنا وهو ما ينكره العلم عليهم أشد الانكار .

ولو أن نزاهة القصد كانت رائدة هؤلاء المستشرقين لما حملوا العلم ما ينكره . وهم انما فعلوا ذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم الى معرفة أعراض الصرع ، والذين تمسكهم طمأنينتهم الساذجة الى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب ، وعن الرجوع الى كتبه . ولو أنهم فعلوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصودا أو غير مقصود ، ولتبينوا أن النشاط الروحى والعقلى للانسان يختفى تمام الاختفاء أثناء نوبات الصرع ، ويبدو صاحبه فى حالة آلية محضة ، يتحرك مثل حركته قبل نوبته ، أو يثور اذا اشتدت به النوبة ، فيصيب غيره بالاذى ، وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه ، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحل به ، شأنه شأن النائم الذى لا يشعر بحركاته أثناء نومه ، فاذا انقضى ما به لم يذكر منه شيئا وشتان ما بين هذا وبين نشاط روحى قوى قاهر ، يصل صاحبه بالملأ الاعلى عن شعور تام ، وادراك يقينى ليبلغ من بعد ما أوحى اليه .

« فالصرع : يعطل الادراك الانسانى وينزل بالانسان الى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس . أما الوحى فسمو روحى اختص الله به أنبياءه ، ليلقى اليهم بحقائق الكون اليقينية العليا ، كى يبلغوها للناس » . ا هـ .

(١) اسبرنقر : حياة محمد وعمله ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

أما مستنده فى ذلك : فهو تشديد محمد فى الزكاة التى يسميها « جريم » ضريبة ، ولما كان القول بذلك فى مكة أسهل من التنفيذ فقد حاول النبى ـ فيما يرى « جريم » ـ أن يؤثر على المكيين بتخويفهم من يوم الحساب متخذا الاكراه الروحانى وسيلة للبذل والسخاء » (١)

ولكن « سنوك هوغرنجه » يرد على « جريم » ، ويرى أن رأى « جريم » واستشهاده ، كل ذلك غريب ، سواء نظرنا الى المنقول فى السيرة ، أو نظرنا الى ظروف البيئة العربية اذ ذاك ، وينهار ـ تحت قلم « سنوك » ـ الرأى القائل بأن الاسلام ، فى الأصل ، أقرب الى أن يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيه من أن يكون دينا .

بيد أن « سنوك » يزعم ـ ولا بد له من الزعم ، لأنه لا بد له من التعليل ـ أن الباعث على رسالة محمد انما هو : فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب ، وتفكيره المتواصل فى مصيره ، وفى الجنة وفى النار .

وارادة الاغراب فى المستشرقين قوية جامحة ، وقد بلغ القمة فى الاغراب المستشرق « مرجليوث » : لقد خطأ كل الآراء التى ذكرناها ، وأراد أن يأتى ببدع من القول يتناسب مع القرن العشرين ، فرأى أن الباعث على بعثة الرسول انما هى أعمال الشعوذة (٢) .

---

(١) جريم : محمد ، ص ١٥

(٢) كتب المستشرق « مرجليوث » كتابا عن سيدنا محمد أتى فيه بكل غريب وبكل باطل ، وظهرت كراهيته للاسلام من خلال هذا الكتاب ظهورا بشعا ، ومن مزاعمه المضحكة مثلا : أن محمدا صلى الله عليه وسلم سافر الى مصر لان كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها . ويرد عليه المستشرق « نولدكه » فيقول : ان محمدا لم يكن يعلم أن المطر قليل فى مصر قلة مطلقة ، ولو كان سافر اليها لعلم هذه الحقيقة التى لاتخفى على أحد .

لقد عرف محمد خدع الحواة ، وحيل الروحانيين ، ومارسها في دقة ولباقة . وقد كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية ، وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية ، تشبه الماسونية ، ولهم شعارات تعارف مثل « السلام عليكم » ، وعلامات يتميزون بها كارسال طرف العمامة بين الكتفين .

ارأيتم المدى الذى يصل اليه المستشرقون فى تخبطهم ، واضطرابهم ، وتعصبهم ، وارادتهم الاغراب ...؟

ان فيما مر ما يكفى لتصوير حالة المستشرقين ، ومع ذلك فسنتحدث عن آرائهم فى مسألة رابعة محددة أبعد ما تكون عن الفروض والتخمينات :

٤ ــ ما هى الأسباب فى مرض الرسول وموته ؟

يعتصر القسيس « لامانس » خياله حتى يخرج برأى يشفى شيئا من غليله ضد الاسلام ، ضاربا بالمعقول وبالتاريخ ، وبالحقيقة عرض الحائط ، فيقول :

كان لمحمد شهوة قوية جيدة ، وقد كثفت جسمه بالملذات ، وخدرت اعضاءه فأصبح مهددا بداء السكتة »

وعلى الضد من ذلك تماما يرى المستشرق « بينيه سنفلة » : أن رؤى محمد كانت فى بعض الأحيان أثرا لضعفه الشديد من الجوع ، ولقد كان يسمع أثناء صومه ما يشبه مواء القطط ، أو أصوات الأرانب .. ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين »

ويعارض هذا وذاك المستشرق « كليمان هيار » فيرى انه قد ظهرت على محمد أعراض التهاب رئوى فخارت قواه بسرعة عظيمة ، وتوفى فى الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية (١) .

أما القسيس « باردو » فانه يرى أن محمدا مات مسموما بيد امرأة يهودية » (٢)

---

(١) كليمان هيار ، تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٨١ .
(٢) الاب باردو ، علامات محمد : ما هى وما قيمتها ؟ ص ٣٧٦

هل نستطيع ـ بعد أن رأينا ما سبق ـ أن نعتمد على آراء المستشرقين مع أن ما ذكرناه من اختلافهم انما هو قليل من كثير، ويهدم بعضه بعضا، ومن اليسير أن نحقق فيه المثل العربى: «لا تكسر الجوزة الا على جوزة» فنبطل تراث المستشرقين كله فى السيرة النبوية، ضاربين بعضه ببعض فاذا هو زاهق.»

المنهج الذى يجب أن يتبع فى دراسة السيرة :

ان الصرح الذى شيده المستشرقون فى سيرة الرسول، انما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار، والسبب فى ذلك واضح. ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغى أن يعتمدوا عليه فى السيرة النبوية، ان كاتب السيرة النبوية يجب عليه أولا: أن يتجرد عن الشهوة والهوى والعصبية، ويبدأ فى دراسة الموضوع نافضا عن رأسه كل ما أوحته اليه الكنيسة من أباطيل عن الاسلام، وكل ما غرسته فى نفسه من ترهات، خاصة بمؤسس الدين الاسلامى .. واذا لم يفعل ذلك فان ما يكتبه سيكون لا محالة وهما وباطلا .

ويجب عليه ثانيا: أن يعتمد على الإخبار الصحيحة التى رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين، يجب عليه أن يعتمد على سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وعلى البخارى ومسلم، وعلى تاريخ الطبرى، وقبل ذلك وبعده على القرآن .

ويجب عليه ثالثا: أن يدرس البيئة العربية فى مهدها الأصلى ؟ مكة، والمدينة، والطائف، وغيرها حتى يتجلى له الغامض ويتضح له المبهم وتستقيم له الفكرة .

ان البيئة العربية الحالية تكاد ترينا رأى العين أشخاص الأخبار التى رويت فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، بل اننا نكاد نتعرف فيها على هذه الشخصيات فى أصغر اشاراتها وابسط أفكارها .

أما اذا قرأنا عن هذه الشخصيات فى كتب المستشرقين ، فاننا لا نكاد نعرفها لشدة التحريف فى تصويرها ، وكثيرا ما نلقى ــ لولا الأسماء العربية ــ صعوبة فى فهم أن هؤلاء المسلمين الذين يتحدث عنهم المستشرقون رجال من العرب ، وذلك لبعد العقلية التى نسبت اليهم عن العقلية التى كانوا عليها .

وبعد : فان « رينان » فى كتابه « حياة المسيح » يقول :

« حقا ان لسير محمد العربية ، مثل سيرة ابن هشام ، ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل » (١)

وهذا يكفينا ردا على المستشرقين الذين يبتعدون عن الصورة الواقعية التى رسمتها كتب السيرة القديمة .

---

(١) رينان : « بحياة المسيح » ، ط ١٢ آ ، ص ٢٠٩

القسيس لامانس

والآن نريد ان نتخذ من احد المستشرقين مثالا واضحا لموقفهم من الاسلام . وذلك هو القسيس « لامانس » ذلك أن تصنيفه من أضخم التصانيف ، وقد كتب عن بدء الاسلام أكثر من عشرة مؤلفات ، وتعمق فى دراسة صدر الاسلام ، لغرض فى نفسه لا يخفى على أحد مهما كان ساذجا ، ذلك الغرض هو هدم الاسلام . ولكن الله غالب على أمره ، وهو يقول :

« انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون »

ان « لامانس » قسيس يقطن لبنان ، ومن هناك ـ وهو هادئ مطمئن ، غير عابئ بشعور المسلمين ، ولا بحقوق الجوار . ولا بالاخوة الوطنية ـ يرسل نقده ، ويقوم بهجومه فى غير هوادة ولا ترفق .

لقد ضاق ذرعا برؤية الاسلام ينتشر شيئا فشيئا ، ويبسط ظله يوما فيوم ، على افريقيا وآسيا ، ويضيق صدر القسيس « لامانس » ، فاذا به يسخط على القدر نفسه ، ويقول :

« لماذا جاء القرآن فجأة ، ليقضى على التأثير اللطيف ، الذى كان الانجيل قد اخذ يحدثه فى ابن البادية ؟ ! ! »

والحق أن مثل « لامانس » فى الاستشراق كمثل بطرس الناسك فى الحروب الصليبية ، وانه ليقوم فى الناحية العلمية بما كان يقوم به ذلك الناسك فى ناحية الدعاية الحربية ، وكالناسك يتخذ من

الوسائل ما يؤديه الى الهدف غير عابىء بعدالة الوسيلة ، وان نزعة كهذه لا يمكن أن تؤدى بمؤرخ الى الانصاف العلمى .

والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالذات ، لأن شهرته العلمية قد خدعت الكثيرين ، فأحسنوا الثقة به ، مع أن اسناداته الكثيرة التى يثبتها فى آخر كل صحيفة انما هى من قبيل التمويه على القارىء ، والحقيقة أنها لا قيمة لها .

واخترناه أيضا لأن هواه المتحكم واضح كل الوضوح . بيد أن غيره من العلماء ممن كان هواهم انما هو التدليل على أن محمدا انما كان مصروعا أو هستيريا ، أو اشتراكيا قادته الاشتراكية الى الدين .. هؤلاء العلماء ـ هم أيضا ـ لا تدع لهم أهواؤهم سبيلا الى الانصاف ، ولا الى حرية لا تخضع الا للوثائق التاريخية .

ان القسيس « لامانس » ذو هوى جامح عنيف ثائر ، وغيره من المستشرقين ذو هوى أيضا يحاول اخفاءه مكرا ودهاء ، فلا يكاد يستقيم لهم أمر .

ومنهج « لامانس » ساذج كل السذاجة : انه منهج العكس ، أتدرى ما منهج العكس ؟

انه ذلك المنهج الذى يأتى الى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها ـ متعمدا ـ الى عكسها ، وكلما كان الخبر أوثق كلما بدت ـ قوية جامحة ـ الرغبة فى البراعة من ذلك الذى يتبع هذا المنهج . ولما كان ينبغى أن يستند الى دعامة ما ، فقد تبنى الفكرة التى تقول :

« ان البشر يعملون غالبا على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها »

وهذه فكرة لا يمكن أن تتخذ كمبدأ عام ، والا كنا مضطرين الى كتابة التاريخ بأجمعه من جديد ، وعكس صورة الطبيعة كلها عكسا تاما .

ان جميع القديسين اذن أشرار ، وجميع الأنبياء ظالحون ، وجميع الشجعان جبناء ، وجميع الأديان تهريج . وقد شاع هذا المنهج عند بعض المتحذلقين حتى أصبح « موضة » (*)

ولقد أراد بعض الظرفاء أن يسخر من أتباعه ، فألف رسالة دلل فيها ، في براعة بارعة ، على أن نابليون لم يوجد قط ، وأن تاريخه أسطورة ملفقة ابتدعتها فرنسا ، تريد بها التغطية على ما يشاع من ضعفها الحربي .

وقد ذكرت مختلف السير الاسلامية أنباء موثوقا بصحتها ، اذا وزنا هذه الأنباء بميزان العقل الصحيح ، والمنطق المستقيم ، واذا ما نظرنا اليها على ضوء دراستنا للبيئة العربية الاسلامية لم يخالجنا شك في صحتها ، ولكن « لامانس » لا يبالي ــ متتبعا منهج العكس ــ فلا يقيم لهذه الأنباء وزنا ولا يقدر لها قيمة (*)

نتائج لهذا المنهج صارخة بالخطأ :

١ ــ واننا لو نظرنا في الأناجيل ، من هذه الوجهة ، واتبعنا هذه السنة لوجب أن نتناول كل حسنة فيها ونعكسها .. واذن لما بقي جديرا بمودة « القسيس » واحترامه الا « هيرود » ، و « يهوذا » اللذان يجب أن يرفعا الى مصاف القديسين الأخيار (*)

٢ ــ ان مما لا شك فيه ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شجاعا :

لقد كان يقود الجيوش في الغزوات ، ولم تطر نفسه شعاعا في أية واحدة منها ، ولا يوم أحد ــ وقد ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ــ ولم تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق ، يوم

ان زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر (١) ، ولم ترعه النبال كالمطر ، يوم حنين .. ومع ذلك ، فان « لامانس » يصفه بعدم الشجاعة ، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة ، يقول :

« زعموا أن العربى يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح فى الفتوح الاسلامية الأولى بما يمتاز به العربى من صفات ومزايا ، ولكنى أتردد كل التردد فى قبول هذا الرأى المبالغ فيه كل المبالغة .. ان شجاعة العرب انما هى من نوع غير سام » .

والرد على القسيس اللبنانى بسيط ، ويكفى أن نسدى اليه هذه النصيحة ، وهى أن يقرأ آلاف الشهادات التى نالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنود المسلمون الشجعان ، الذين حاربوا دفاعا عما اعتقدوه حقا ، فكانوا من عوامل النصر فى الحرب الكبرى . لقد أثارت فرق الهجوم منهم اعجاب العالم أجمع ، وان هذه الشهادة فى اسلوبها العسكرى الموجز صرح شامخ مجيد ، يسجل روح التضحية ، والبطولة لدى العرب المغاوير .

وان سهام النقد ، مهما بلغت من العنف ، لا يمكن أن تنال من هذا الكتاب الذهبى النفيس ، ذلك أنه مكتوب بخط قواد منصفين ، لا يمتون الى الأمة العربية بصلة الجنس أو الدين .

---

(١) قال على كرم الله وجهه : « انا كنا اذا حمى اليأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه » .

ويعلق فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين ، شيخ الازهر السابق ، على هذا فيقول : « كذلك الداعى الى الحق ، ولا سيما المعهود اليه بابلاغه وتنفيذه : لابد من ان يكون شجاعا ، رابط الجأش ، على قدر شدة المدعوين وصعوبة مراسهم ، وعلى قدر عظم الحق ومخالفته مللهم ، وعاداتهم وأهوائهم فاذا أودع الله تعالى قلب سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، شجاعة وسكينة فى مواضع الخطوب ، فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه المزية أعظم نصيب ، اذ لا أشد من مراس الامة التى ابتدأ بانذارها ، وهى الامة العربية ، وفى دعوة الاسلام قضاء على مللهم ، وذم لمعبوداتهم ، وابطال كثير من عاداتهم ، وصرف لهم عن أهوائهم .

٣ ــ ومن المعروف أن الرسول كان يتحنث فى غار حراء ينفرد بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره ، منصرفا كل الانصراف عن هذا العالم المادى ، مستغرقا فى التفكير فى الله ، ولكن ، « لامانس » يؤكد انه كان يكره الوحدة ؟ ؟

٤ ــ ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير ، وكان يأتى على آل محمد الشهر ، والشهران لا يوقد فى بيت من بيوتهم نار . وكثيرا ما كان قوته التمر والماء ، وكان رسول الله ، عليه السلام ، يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، ومع ذلك فان « لامانس » يصفه بأنه أكول ، قد كثف جسمه الملذات ، ولا يذكر شيئا عن صوم الرسول لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس ، وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر .. ان صوم المسيحيين يعد ملهاة بالنسبة لصوم المسلمين ، وقد كان الرسول من أكثر المسلمين صوما ، ولكن القسيس « لامانس » يثبت على عناده !

٥ ــ ويقول الله تعالى :

« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » (١)

وقد نقلت الأخبار : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، لطول وقوفه فى الصلاة (٢) ومع ذلك فيقول « لامانس » :

---

(١) سورة المزمل آية : ٢٠

(٢) تحدثنا الروايات الصحيحة : أنه كان صلى الله عليه وسلم ، مسلما وجهه الى الله تعالى مملوء القلب بخشيته وموصول الهمة بعبادته ، فكان عليه الصلاة والسلام يقوم بالدعوة ويضيف الى هذا العمل العظيم التقرب الى الله تعالى بالذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن .

وكان يتهجد بالليل على وفق قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ..

روى الامام البخارى فى جامعه الصحيح عن المغيرة بن شعبة أنه قال : ان كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقوم ليصلى حتى ترم ، اى تنتفخ قدماه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبدا شكورا »

كان محمد نؤوما ... وهو لا شك يجهل ، أو يتجاهل أن روح النقـد عند العرب تبلغ حـد الافراط ، وأن هؤلاء لو رأوا ما يكذب خبر القرآن من أن الرسول كان يقضي جزءا كبيرا من الليل فى العبادة لما استمروا على متابعته وتصديقه ، ولما احتفظ هو بثقتهم .

٦ ـ وانه لمن المعروف أن العالم لم ينجب من أمثال سيدنا عمر الا أفرادا يعدون على الأصابع : ان عمر من أعظم الفاتحين المصلحين ، الذين عرفهم التاريخ ، وان عدالته الرحيمة الصارمة ، وسياسته الحكيمة النافذة ، وادارته الدقيقة الساهرة ... كل ذلك ، يجعله من هؤلاء الذين لا يظفر التاريخ بأمثالهم الا فى دهور دهيرة ، واننا حقا لا نكاد نجد من يشابهه فى التاريخ ، اللهم الا اذا كان الاسكندر الأكبر .

ومع ذلك فقد كان عمر فى نظر القسيس جنديا مسكينا ، أدنى مرتبة من الوسط . ولكنه فى كراهيته البالغة للاسلام : ينسى أو يتناسى هذا الوصف حينما يريد أن ينقص ـ معاذ الله ـ من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيذكر أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر .

وكان يخص رمضان من العبادة ما لا يخص غيره من الشهور : فيكثر فيه من تلاوة القرآن ، والصلاة والذكر ، والاعتكاف ، وما كان يخرج عنه شهر حتى يصوم منه ، وربما صام أياما متتابعة ، حتى يقال : لا يفطر .

وكان يواصل الصوم فى رمضان ، اى يصل الليل بالنهار فى الصوم يومين أو اياما ، ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة وكان ينهى أصحابه عن الوصال ، فيقال له : انك تواصل ، فيقول : لست كهيئتكم ، انى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى » . والمراد من اطعام الله وسقيه ، ما يغذيه به من المعارف ، وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة . وورد فى السيرة انه كان لا يجلس ولا يقوم الا عن ذكر الله .

وكان روح عبادته الاخلاص ، يصلى فى حجرته نافلة كما يصلى فى المسجد ، ويذكر الله خاليا كما يذكره فى جماعة ، ويعمل له فى السر كما يعمل له فى العلانية .

« من رسالة عن سيدنا محمد ، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين »

وليس عمر وحده هو الذى نال من قلم القسيس ، فقد أخذ القسيس يحطم ــ كعاصفة هوجاء ــ كل أخيار المسلمين : الرسول ، أبا بكر ، عمر ، عثمان ، عليا ، فاطمة ، عائشة ، حفصة ، وغيرهم ، وغيرهم ...

٧ ــ أما اذا تحدث عن أعداء الاسلام ، كأبى جهل وأبى لهب ، ألد أعداء النبى ، أما اذا ما تحدث عن المنافقين خونة الاسلام ، أما اذا ما تحدث عن يزيد قاتل الحسين ، أو عن بنى أمية ــ على وجه العموم ــ فانه يشيد ما شـــاء له هواه ، ويمدح ما أمكنـه المدح ، ويطرى كلما أتيح له الاطراء ، ويلبسهم من الفضيلة ثوبا لامعا خلابا .

ولقد بلغت به الحماسة فى كتابه عن بنى أمية ، حـدا أثار نفور المسيو « كازانوفا » الأستاذ فى « كليج دى فرانس » فقال :

« كانت نفسية الأمويين فى مجموعها مركبة من الطمع فى الغنى الى حد الجشع ، ومن حب الفتح من أجل النهب ، ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بملذات الدنيا ، لذلك يحق لنـا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكى ، مثل الأب « لامانس » ، يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطغاة ، ساخرا من سذاجة « على » الذى مكروا به وخدعوه .

« وانها لغريبة حقا هذه المباحث التى يبدى فيها هذا المؤلف ــ المطلع على تاريخ ذلك العصر اطلاعا حريا بالاعجاب ــ تشيعه للأمويين ضد بنى هاشم ، والتى تتوالى فيها المرافعات الدفاعية ، والاتهامات الادعائية ، آخذا بعضها برقاب بعض (١) » .

٨ ــ أما المنافقون فهم أبطال الوطنية ، عنـد القسيس ، واذا تســاءلت : من هو هذا الدخيل الذى لم تنبته الجزيرة العربيـة ، والذى يقف أمامه « أبطـال الوطنية القوميـة » ، فانك لا تجـد من القسيس الا صمتا !!!

---

(١) كازانوفا « محمد وانتهاء العالم » ص ٥٨ .

أكان محمد « فارسيا » غازيا للجزيرة العربية ؟

إم كان « روميا » يهاجمها ؟

أم هو عربى يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته فى وحدة تكون قدوة ومثلا أعلى لكل من يشرئب بصره نحو الكمال ؟

واذا أردنا أن نعد أخطاء « لامانس » فاننا لا نقف عند حد : انه مثلا يتعمد أن يعطى الألفاظ معنى آخر غير المعنى الذى تعطيه لغويا او اصطلاحيا ، وكأنه فى ذلك موكل بقلب الحقائق .

ان « الردة » فى نظره معناها « الانفصال » و « المرتدون » هم « الانفصاليون » ، و « المنافقون » هم « المشككون » . وهم : أبطال الوطنية القومية . واذا قرأت فى القرآن الآية القرآنية الكريمة :

« ان الله مع الصابرين » .

فسترى أن « لامانس » يشرحها شرحا أبعد ما يكون عن السمو وعن المكانة العليا التى هى لله فى الاسلام ، انه يفسرها :

« ان الله مع الساكتين على سياسة محمد المتناقضة » .

ويتحدث عن أبى بكر ، وعمر ، فقط ، فيقول : الثالوث : انه يقول :

« حكومة الثالوث : أبو بكر وعمر » .

بل يطلق كلمة الثالوث على سيدتين ، فيقول :

« حزب الثالوث المؤلف من عائشة ، وحفصة الدساستين المخوفتين » .

ولا عجب بعد ذلك أن نرى هذا القسيس يأخذ على التوحيد الاسلامى أنه « ضيق » ، لأنه لا يقول :

بأن الله ثالث ثلاثة ، وبأن الثلاثة واحد ، ولا يقول : بأن الأب غير الابن ، ومع ذلك ، الابن هو الأب .

« ان توحيد الاسلام ضيق ـ فى نظره ـ لأنه لا ينطوى على ما تنطوى عليه المسيحية من تلك المتناقضات ، ويقول كتابه الكريم :

« قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

وهذا القسيس يفسد ـ متعمدا ـ الصور التاريخية ، انه يحدثنا عن مكة والمدينة فى عهد الرسول ، فيعطينا صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ، ولندن ، حينما يتحدث فى جزيرة العرب ، عن الحملة الصحافية ، عن الماليين ، بنك مكة ، مليار النقابة القرشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، ابلاغ الرسالة الى محل الاقامة ، ديوان ذى الجلال ، وزارة الله ، الى آخر هذه التعبيرات الحديثة التى تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة .

ومع ذلك فلامانس جرىء ، انه جرىء جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة فى انه اذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة ، على خبر واحد يؤيد به زعمه ، وهواه ، استغنى عن الخبر وثبت على مزاعمه الباطلة ، التى يسوقها الى القراء برشاقة بالغة ، وأحيانا يقول :

« ان هذا أمر عنى رجال الحديث والأخبار بكتمانه (١) » .

وبينما يحترم المسلمون السيد المسيح ، ويجلونه ، نجد « لامانس » يصف مؤسس الاسلام بأبشع ما يمكن أن يظهره الحقد والكراهية ، حتى لكأننا نسمع أسلوب رهبان القرون الوسطى الذين لم يكن فى جعبتهم الا السباب والشتائم .

الافتتان بالمستشرقين لا اساس له :

انه لمن الغريب حقا ـ والأمر كذلك ـ أن يفتتن بعض الشباب المسلمين بالمستشرقين مع ما يرون من كراهيتهم للاسلام ، وتعصبهم ضده ، وجهلهم أو تجاهلهم من أجل حاجات فى انفسهم .

---

(١) لامانس : « هل كان محمد صادقا ؟ »

انهم يشككون ، ويخطئون جاهلين أو متجاهلين .

لقد وصل بهم الأمر الى تجريد الرسول صلى الله عليه وسلم من اسمه ، زاعمين أنه لم يدع محمدا قط ، وأن حقيقة اسمه ستظل من الألغاز التى لا حل لها ، وحجتهم :

أن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص ، لذلك يؤكدون أنه لقب ليس الا (١) » .

كذلك يزعم بعض المستشرقين أن « الرحمن » اسم علم لله !!! ويترجمون البسملة ترجمة تدل على هذا الراى السقيم : باسم الاله « الرحمن » الرحيم .

ولما كانت ثلاثة أرباع أسماء الأعلام العربية نعوتا ، فأنت ترى ما فى دراسة الاعلام من منابع غزيرة تصدر عنها مخيلة المستشرقين(٢) .

اما أبو بكر — رضى الله عنه — فقد سمي « أبا بكر » لأنه أبو البنت البكر ! !

والصعيد معناها : السعيد كما فى دائرة المعارف البريطانية .

ولعل فيما ذكرناه ما يخفف من غلواء الاعجاب الذى يبديه بعض متفرنجي الشبيبة الاسلامية نحو المستشرقين .

---

(١) هوار : تاريخ العرب ، ج ٢ ص ٩٠

(٢) الشرق فى نظر الغرب ، تعريب عمر فاخورى .

الفصل الخامس

نصائح للمستشرقين

ويختم ناصر الدين كتابه القيم « الشرق كما يراه الغرب » بهذه الآراء النفيسة التى نورد بعضا منها فيما يلى :

لقد أصاب الدكتور « سنوك هرغرنجـه » فى قوله : « أن سير محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق » .

هذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم ، فانها تشفيهم من داء الأحـكام السابقـة ، التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون الى نتائج لاشك خاطئة .

فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء الى هدم بعض الأخبـار ، وليس هذا بالأمر الهين ، ثم الى بناء أخبـار تقوم مقـام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل .

« يحتاج العالم ، فى القرن العشرين ، الى معرفة كثير من العوامل الجوهرية ، كالزمن ، والبيئة ، والاقليم ، والعـادات ، والحاجات ، والمطامح ، والميول ، والأحقـــاد الخ . . . لا سيما ادراك تلك القوى الباطنـــة التى لا تقع تحت مقاييس المعقول ، والتى يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات .

لنضرب مثلا عكسيا : ما رأى الأوربيين فى عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التى تكثر عنـد مؤرخى الفرنسيين ، ويمحصها بمنطقه الشرقى البعيد ، ثم يهـدم قصـة الكردينال ريشيليو كما

نعرفها ، ليعيد الينا ريشيليو آخر له عقليــة كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه ؟

« ان مستشرقى العصر الحاضر قد انتهوا الى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث لصورة الرسول ، ويخيل الينــا أنا نسمع محمدا يتحدث فى مؤلفاتهم : اما باللهجة الألمانية ، واما باللهجة البريطانية ، واما باللهجة الفرنسية ، ولا نتمثله قط « بهذه العقلية والطباع التى ألصقت به » يحدث عربا باللغة العربية .

« ان صورة نبينا الجليلة التى خلفها المنقول الاسلامى ، تبــدو أجل وأسمى اذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التى صبغت فى ظلال المكاتب بجهد جهيد ، ونرجو أن يعرف العلمــاء ضلالهم ، فيعدلوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التى رفعهــا التاريخ اقرارا بفضل أنبياء العرب ، وبنى اسرائيل والهنود على الانسانية ، فان أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول .

« واذا شاء المستشرقون أن تكون جهودهم مثمرة فلينصرفوا عن اضاعتها فى محاربة المنقول الذى هو أسمى من أن يوازيه شىء ، الى شرح هذا المنقول واحيائه بدرس نفسية العرب درسا عمليــا غير سطحى .

كان أحرى بالاستشراق الذى يبنى بحوثه على الجثث ـ كما هو شــأن طلاب الطب ـ فى تلك القاعات التى تدعى مكاتب ، أن يقتصر على مباحث التحقيق والعلم النقى الصافى .

وهو فى هــذه الدائرة ، دائرة الاخراج العلمى ، قد أنجز عمــلا مجيدا ، نحن على رأس المقرين بحسنه ونفعه ، ولكن لم يبق له فيما يتعلق بشأن الاسلام الا أن يخلى المجال ، ولعله أدرك هذه الحقيقــة فأخذ يتوسل بمختلف الوسائل الى تجــديد شــبابه آخذا بأشــد أساليب التاريخ الحديثة عقما ، جادا فى طلب أغرب الآراء وأبعدها عن المعقول .

وغاية ما فى الأمر : أنه زاد وجهه تجعدات لم تكن من قبل فيه ،

ما أشبه نظرياته ، رغم جدتها الظاهرة ، بكتابات للطلاب في مبـاراة الشهادات ، التي لا تكاد تولد حتى يمسها الكبر ، لأنها غير قائمة على درس الحياة ، واذن غير جديرة بها » .

وفي نهاية الكتاب الجليل الذي ألفه ناصر الدين عن سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والذي ترجمناه الى اللغة العربية كتب عن آماله وأمانيه وتوقعاته وتنبؤاته بالنسبة للاسلام ، ومما كتب في ذلك :

وثبة الاسلام :

عندما رفع الله اليه مؤسس الأسلام العبقري ، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائيا ، وبكل دقة ، حتى في أقل تفاصـيله شأنا ..

وكانت جنود الله قد أخضعت بلاد العرب كلهـا ، وبدأت في مهاجمة امبراطورية القياصرة الضخمة بالشام ..

وقد آثار القلق الطبيعي المؤقت ، عقب موت القائد الملهم ، بعض الفتن العارضة . الا أن الاسلام كان قد بلغ من تماسك بنائه ، ومن حرارة ايمان أهله ، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلا ..

ففي أقل من مائة عام ، ورغم قلة عددهم ، اسـتطاع العرب الامجاد ، وقد اندفعوا ــ لاول مرة في تاريخهم ــ خارج حـدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم ، من الهند الى الاندلس ..

وقد شغلت ــ في قوة ــ هذه القصة المجيدة ، تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا ، ــ أعني نابليون ــ الذي كان ينظر دائما الى الاسلام باهتمام ومودة ، فيقول عن نفسه في احدى خطبه المشهورة بمصر ، انه « مسلم موحد » (١).

---

(١) عن : شي .. شيرفيس « بونابرت والاسلام »

ويذكر الاسلام فى أواخر أيامه ، فيرى « اننا اذا طرحنا جانبا الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب ، فلا بد أن يكون فى نشأة الاسلام سر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى مجهولة ، جعلت الاسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية ، وربما كانت هذه العلة الاولى المجهولة : ان هؤلاء القوم ، الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى، قد صهرتهم — قبل ذلك — حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ، ومواهب عبقرية ، وحماس لا يقهر ، أو ربما كانت هذه العلة شيئا آخر من هذا القبيل .. (١)

ولذلك كان نابليون يحلم أن وراء خمول العالم الاسلامى ، فى فترة الانحطاط ، خزائن لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة ، فحاول — فى مناسبات متعددة — أن يستميل المسلمين الى جانبه ببعض المعاهدات . وكان يؤمن بأنه اذا وفق فى ذلك يستطيع أن يوقظ الاسلام من سباته ، وأن يغير بمعونته وجه الارض قاطبة ..

ولم يكن نابليون مخطئا فى ظنه ، فقد كانت الحروب الداخلية، حقا ، سببا فى اظهار سجايا البطولة عند العرب .. ولكنها — الى جانب ذلك — كانت حجر عثرة فى سبيل كل تقدم ، وكل نظام .. ولولا نبوءة محمد ، لظل هؤلاء الجنود البواسل الى آخر الزمن ، فى صحاريهم لا يشغلهم شاغل سوى الفتن المتوارثة .

وجاء الاسلام فوضع حدا للتفاخر بالالقاب والنسب أو الجنس، وجعل من المؤمنين اخوة حقا ، ونفخ فيهم روحا جديدة كلها مساواة (١) وتقوى وشاعرية .. فما أروع أعمال البطولة التى استطاع هؤلاء القوم ، ذوو النفوس الحماسية ، والقلوب المنيعة ، أن يقوموا بها بعد ذلك !.. ولم تكن هذه الكنوز من القوة والحيوية المدخرة ، خلال عصور تقضت فى الحروب الاهلية الطويلة ، هى الذخيرة الوحيدة التى بفضلها دوخ العرب كل هذه الشعوب التى تختلف عنهم كل الاختلاف ، وتفوقهم — فى هذه الفترة — حضارة

---

(٢) من : لاس كازاس « مذكرات سانت هيلين ج ٣ ص ١٨٣ .

.. فقد تراكمت فى مخيلاتهم ـ طوال قرون التأمل بين أحضان الصحارى الشاسعة القاحلة ـ كنوز أخرى من الاحلام والآمال .. احلام أمة شابة فتية ـ وان كانت غير متمدينة ـ وآمالها ..

وسوف نرى هذه الاحلام والامال تفرض فرضا على سائر تلك الشعوب التى كانت ثقافتها شائخة منهوكة .

وانا لننصح لمن قد يستريبون فى عبقرية العرب ، بتصفح مجموعة من الرسوم التى تمثل المبانى التى خلفوها منثورة فى جميع أنحاء البلاد الخاضعة لهم ، لا شىء يستلفت النظر مثلما تستلفته وحدة الاسلوب المعمارى التى تميز هذه الاثار عن غيرها من آثار العالم . ومع ذلك فهذه المبانى المتشابهة ، تجدها قائمة فى الهند والتركستان وفارس وتركيا ومصر وشمال افريقيا واسبانيا .. الخ .. أى فى بلاد يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف ، ولها حضاراتها ذات الطابع الخاص المتميز الذى لم تستطع حضارة أثينا او روما ، أن تؤثر فيه بشكل جدى ..

ولقد اخذ العرب كثيرا عن كل تلك الدول المنهزمة ، ولجئوا فى أحوال كثيرة الى استخدام فنييها ، بل عمالها ، لانشاء قصورهم ومساجدهم ، ولكنهم كانوا دائما لايحققون بما أخذوا عنها الا أحلاما وأفكارا عربية صحيحة .

والاسلوب المعمارى العربى نجد طابعه العبقرى المبتكر ، فى أنه دائما يسترشد بفن جديد نشأ مع الاسلام ، فن لم يكن له مثيل فى الفنون السابقة ، وكان تحقيقا ماديا لمثل العرب العليا ، اذا صح هذا التعبير .. ذلك هو فن الزخرفة الخطية الذى استخدم لتمجيد كلام الله ـ أى آيات القرآن ـ ..

وان هذا الفن الخطى العربى ، حتى فى حالة اقتصاره على

(أ) فى الآثار الاسلامية : ان أكرمكم عند الله اتقاكم . « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » كلكم لآدم وآدم من تراب » . « رب اشعث اغبر .. لو اقسم على الله لابره » .. « يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئا » الخ ..

وسائله الخاصة وحدها ، لهو من أروع الفنون الزخرفيـة التى تمخضت عنها مخيلة الانسان ، ولعله الفن الاوحد الذى تستطيع أن نقول عنه دون مغالاة ، ان له روحا .. فهو كصوت الانسان ، يعبر عما فى النفس من أفكار . وهو لا يستوحى العالم الخارجى ـ مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنميق ـ فى شىء .. وهو بذلك ينتسب الى الموسيقى ، ويبدو وكأنه رمز لمعان تجيش فى أعماق القلوب ..

انظر الى هذه الحروف التى تثب من اليمين والشـمال ، فى خطوط أفقية سريعة ، ثم تدور حول نفسها فى تموجات هادئة أو عنيفة ، وكأنها فى ذلك تسير وفق هوى روح داخلية خفية ، ثم ترتفع ، ثم تتوقف فجأة وتثبت ، فخورة ، فى أشـكال مستقيمة متقاطعة ثم اذا بها تعود الى الأندفاع فى جموح ، وتحل ما انعقد من أشكالها ، ويداعب بعضها البعض فى مرح لذيذ ، فيندفع معهـا الخيال فى أحلام لا نهاية لها ..

وليس من الضرورى أن يكون الانسان مستشرقا ممتـازا ، أو خطاطا بارعا ، ليدرك عمق الدوافع التى أدت بالقلم الى رسم هذه الخطوط .. وليتمتع بالنظر الى أشكالها المجردة ، أو بالتأمل فى العاطفة القوية التى تظهر فى انحناءاتها .. فكل روح فنانة لا بد أن تتصل الأسباب ـ دون جهد ـ بينها وبين أسرار هذا الفن .

ولقد سعى فن الزخرفة الخطية العربية ـ بعد أن أصبح تعبيرا صادقا لمثل الامة العربية ـ الى أن يخضع لاتجاهاته ، التى يغلب عليها الطابع الدينى ، كل ما من شأنه أن يعين على استكماله ، ووضعه فى الأطار المناسـب ، مرغما فن العمارة والنظم الزخرفية الأخرى على ترسم أساليبه وأشكاله (٥٠)

ولقد خضعت لسيطرته وسلطانه ، قبة بيزنطة الكروية الثقيلة ، فاتخذت هيئة أشـبه ما تكون بهيئة الخوذة العربية ، وتحولت انحناءات رواقها الذى لم يكن فيه شىء من العبقرية ، الى أشكال

مربية بالغة الروعة ، بينما اتخذت الطوابى الوضيعة صور المآذن الانيقة التى ترتفع الى قمم التجلى ..

وأخيرا : فان النظام الزخرفى الوحيد الذى يشـابه الزخرفة الخطية العربية ، فى كونه لا يستوحى الطبيعة ـ وهو الزخـرفة الهندســية ، ذلك الفن الذى لم يستطع الا غريق واللاتينيـون استخدامه الا فى أشكال ضئيلة لا روح فيها ـ قد دبت فيه بين أيدى العرب حياة جديدة حقا .. وقد أطلق على هذا الفن الزخرفى منذ ذلك الحين اسم له دلالته ، أرابسك

وراح يتأسى بفن الزخرفة الخطية العربيـة ، فى البحث عن أعجب ما يبهر الفكر من أشكال عبقرية يحار العقل فى تشابكها الذى لا نهاية له ، وفى تحولاتها المفاجئة ..

يا لها من آيات غاليات خلفها لنا الفن الاسلامى !.. ان الهواة الغربيين يتنازعون اليوم آثار هذا الفن غير مبالين بما ينفقونه فى سبيلها ، وهم يأملون من وراء ذلك أن تدخل معها ـ فى بيوتهم المظلمة ـ بعض انعكاسات الاحلام التى استوحاها الفنانون العرب .. وانه لمجد الاسلام ، يتغنى به فى هذه الديار ما نشهده فيها من تحف تبلغ الغاية من الدقة والجمال والاشراق .. وانا لنرى الذوق الغربى يتجه الان الى اقتناء آيات فن الخط العربى الذى ـ بنقله لكلام الله ـ ينفخ روحا قوية فى زخارف المصاحف ، أو صـدف الآنية .

والغربيون ـ فى ذلك ـ يترسمون خطى الامراء العرب ، أيام عصر الاسلام الذهبى حيث كانوا ، فى سبيل الحصول على صحيفة مخطوطة ، بقلم أحد الخطاطين المشهورين ، يبذلون مجهودات جنونية تستطيع مقارنتها بتلك التى تبذل فى أيامنا هذه ، لاقتناء تحف فن التصوير ..

ولكن ! .. أيتها الايات المقدسة ، التى تبهرين أصحابك الجدد ، وتثيرين اعجابهم العميق ، بأشكالك المتانقة الرقيقة ، الا تكشفين لهم يوما القناع عن سمو جمال روحك الاسلامية ؟..

اثر الحضارة الاسلامية فى أوروبا ، خلال القرون الوسطى وعصر النهضة :

لقد أدهشت كل تلك العجائب عقول أهل أوربا ، حتى فى أعنف إيام عدائهم للاسلام .. وقد نقلوا كثيرا من العرب فى ميدان الزخرفة والمعمار . ولا شك أن دراسة أكثر عمقا لهذا الموضوع ، من شأنها أن تبرهن على أن أوربا قد تأثرت بالفنون العربية أكثر مما تأثرت بالفنون الاغريقية واللاتينية .. ولكن مثل هذه الدراسة قد تبعدنا عن الغرض الأساسى من هذا الكتاب .. ويكتفى هنا ـ على سبيل التلميح ـ بالاشارة الى المؤرخ « دولور » الذى يقول :

« ان مهندسى العرب قد عملوا فى بناء كنيسة نوتردام بباريس »

أما فى ميدان العلوم ، فان أثر المسلمين لم يكن بأقل خصبا ولا نرى من وسيلة لتوضيح هذا أفضل من نقل رأى الدكتور « جوستاف لوبون فى ذلك ، ونجده فى كتاب القيم : « حضارة العرب » :

« ويعزى الى بيكون ـ على العموم ـ انه أول من أقام التجربة والملاحظة ، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ .. ولكنه يجب أن تعترف قبل كل شيء ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ..

ويقول العلامة الشهير همبولد ـ بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة هو أرفع درجة فى العلوم ـ ان العرب ارتقوا فى علومهم الى هذه الدرجة (١) التى كان يجهلها القدماء تقريبا .

---

(١) يقول الدكتور هيكل فى كتابه عن سيدنا محمد :

« لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد ، بل لعلى أكون اوفى الى الحق اذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث بالعربية على الطريقة

وكانت دراسة العلوم الرياضية من الدراسات الذائعة لديهم؟
وقد تقدم علم الجبر بفضلهم حتى انه قيل انهم مخترعوه .. ولقد

الحديثة .. وقد تأخذ القارىء الدهشة اذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة الحديثة العلمية من شبه قوي ، فهذه الطريقة العلمية تقتضيك اذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيده سابقة في هذا البحث ، وان تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية ، فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت اليه الانسانية في سبيل تحرير الفكر ، وها هي ذي مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته » .

ويعقب فضيلة الاستاذ الاكبر المرحوم الشيخ المراغي على هذا الرأى فيقول :

« أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكما ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنب من يتبع الظن وقال : « ان الظن لا يغنى من الحق شيئا » .. وعاب تقديس ما عليه الاباء وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها .. ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة الا في القرآن ، وهي معجزة عقلية ، وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به   حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

وأما أن هذه الطريقة حديثة ، فهذا لا يعتذر عنه ، وقد ساير الدكتور غيره من العلماء في هذا ، ذلك لانها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولانها طريقة علماء سلف المسلمين .. أنظر الى كتب الكلام تراهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله . فيقول آخرون : لا - ان أول واجب هو الشك ، ثم انه لا طريق للمعرفة الا البرهان ، وهو وان كان نوعا من أنواع القياس الا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية أو منتهية الى الحس ، أو مدركة بالبداهة ، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، على ما هو معروف في المنطق ، وكل خطأ يتسرب الى احدى المقدمات أو الى شكل التأليف مفسد للبرهان .

وقد جرى الامام الغزالي على الطريقة نفسها ، وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وقدر ورتب ووازن ، وقرب وباعد ، وعرض الادلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله الى أن الاسلام حق ، والى ما اهتدى اليه من الآراء ، قد فعل هذا ليتجافى التقليد ، وليكون ايمانه ايمان المستيقن ، المعتمد على الدليل والبرهان ، ذلك الايمان الذى لا يختلف المسلمون في صحته ونجاة صاحبه .

وأنت واجد في كتب الكلام ، في مواضع كثيرة ، حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد ثم البحث والنظر ، فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة ، فليس هناك جديد عندنا ، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعملي في الشرق ،

كان لهم أيضا قصب السبق فى تطبيق الجبر والهندسة ، وهم الذين ادخلوا التماس فى حساب المثلثات ..

« وكان علم الفلك يدرس بحماس فى مدارس بغداد ودمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة وغيرها . تلك المدارس التى وصلت الى اكتشافات عديدة يمكن ايجازها فى القائمة التالية :

ادخال خط التماس فى الحسابات الفلكية ، ووضع جداول لحركة الكواكب ، وتحديد سمت الشمس تحديدا دقيقا وتدرجه ، وتقدير تقدم الاعتدالين تقديرا صحيحا ، وأول تحديد صحيح لمدة السنة .

ثم اننا مدينون لهم ايضا باثبات ما فى اكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام ، واستكشاف عدم التساوى القمرى الثالث المعبر عنه اليوم بالتغيير .

« وكان النصيب الذى أسهم به هؤلاء الرواد ، الذين يمتازون بالجراة والاقدام نصيبا ضخما .. فمن الناحية العلمية كانت لهم هذه التحديدات الفلكية الصادقة التى هى أول أساس للخرائط ، كما عملوا على تصحيح الاخطاء الفاحشة التى وقع فيها الاغريق .

أما من ناحية كشف بقاع العالم المجهولة فقد نشروا رسائل فى الرحلات تعرف الناس بأقطار العالم المختلفة التى كانت شبه مجهولة من قبل ، والتى لم يسبق للاوربيين ارتيادها » .

« واننا نجد فى خريطة من خرائط الأدريسى ترجع الى عام ١١٦٠ منابع النيل بين البحيرات الأستوائية الكبرى مرسومة رسما

وبعد أن تفشى التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذ عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .

هذا القانون العلمي فى البحث معروف قديما وحديثا ، والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير ، ولا يتفاوت الناس كثيرا فى معرفة القانون ، ولكنهم لا يتفاوتون جدا التفاوت فى تطبيق القانون .

من مقدمة فضيلة الاستاذ المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى لكتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل .

دقيقا ، وهى تلك المنابع التى لم يكتشفها الاوربيون الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر » .

« وسجل مكتشفاتهم فى ميدان العلوم الطبيعية اعظم من ذلك، والبيان التالى يوضح اهمية هذه المكتشفات :

« معلومات عالية فى نظريات علم الطبيعة ، وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الضوئية .. اختراع أجهزة آلية من أبدع ما يكون .. اكتشاف علق الأجسام بأصل علم الكيمياء مثل الكحول والحامض الكبريتى ، وأهم العمليات الاساسية فى هذا العلم كالتقطير ــ تطبيق الكيمياء فى ميدانى الصيدلة والصناعات ، وخاصة فيما يتعلق باستخراج المعادن ، وصناعة الفولاذ ، والصباغة ، وغير ذلك .. صناعة الورق من الخرق ، والاستعاضة به عن رق الغزال وورق البردى والحرير الصينى .. ومن المحتمل انهم أول من استخدم البوصلة فى الملاحة .. ومن المحقق أنهم أدخلوا هـــذا الاختراع الأساسى فى أوربا .. وأخيرا : فهم قد اكتشفوا الاسلحة النارية ففى عام ١٢٠٥ استخدم الامير يعقوب المدفعية فى حصار مدينـــة المهدية .. وفى عام ١٢٧٣ استخدمها السلطان ابو سيف فى حصار مدينة سجلماسة .. وقد حضر كونت دربى وكونت سالسبرى الانجليزيان فى حصار مدينة الجزيرة التى دافع عنها العرب بالمدافع، فشاهدوا نتائج استخدام البارود ، فنقلا ذلك الاختراع الى بلادهم ، فاستخدموا الانجليز فى معركة كريس بعـد ذلك بأربع سنوات .

أما فيما يتعلق بالطب ، فقد استوحى العرب أولا كتب الاغريق ثم ساروا بهذا الفن خطوات هامة الى الامام ..

وتكاد تكون سائر المعارف الطبية فى أوربا خلال عصر النهضة ، مأخوذة عن العرب ، وأهم ما حققه العرب فى ميدان الطب يتعلق بالجراحة ووصف الامراض ، وبالادوية والصيدلة ، وقد ابتكروا وسائل علاجية متعددة ، ظهر بعضها فى العالم الطبى حديثا بعد

أن قضت عليها قرون من النسيان .. مثل ذلك استخدام الماء البارد للطب للحمى التيفودية ..

والطب مدين لهم بكثير من المواد الطبية مثل : خيار الشنبر، والسنى المكى ، والرواند ، والتمر هندى والكافور والكحول والقلى وغير ذلك .. واننا مدينون لهم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم مثل الاشربة وصنوف اللعوق ، واللزق والمراهم والادهان والماء المقطر ، وغير ذلك .

« كذلك الجراحة ، كان للعرب الفضل فى تقدمها الأول ، فكانت مؤلفاتهم هى المراجع الأساسية التى تدرس بالمعاهد الطبية الى عهد قريب جدا .. لقد كانوا فى القرن الحادى عشر الميلادى يعرفون علاج الماء الذى ينصب فى العين (الكاتاركتا) بالتحويل أو استخراج البلورية ، ويعرفون كيفية تفتيت الحصاة وعلاج النزيف بصب الماء البارد ، كما كانت لهم خبرة باستخدام الكاويات ، والاحزمة ، والكى بالنار لتطهير الجراح .. وان التخدير الذى يظن الناس انه اكتشاف حديث ، يبدو وان العرب لم يجهلوه ، فقد كانوا يوصون باستعمال نبات الزوان ـ قبل العمليات المؤلمة ـ لتنويم المريض حتى يفقد الوعى والحساسية ..

«وكانت لهم أيضا ثقة عظمى فى الوسائل الصحية لعلاج الأمراض وكانوا يعتمدون كثيرا على القوى الطبيعية ، والطب النظرى ، الذى يبدو اليوم وكأنه الكلمة الأخيرة للعلم الحديث ، يوافق هذه الفكرة فى استدلالاته » .

أثر المسلمين فى ميدان الفكر :

ولعل أثر المسلمين فى ميدان الفكر كان أخطر شأنا ، فقد دعا عيسى الى المساواة والاخوة ، أما محمد فوفق الى تحقيق المساواة والاخوة بين المؤمنين أثناء حياته ..

وانه يكون من الحمق أن نزعم أن الاسلام أثر مباشرة فى خطط الثورة الفرنسية التى كان رجالها يجهلون معظم ما قام به محمد فى

سبيل المساواة بين الناس ـ ولكننا نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الاولى فى السعى الى تحرير الفكر كانت أثرا منطقيا للمبادىء التى جاء بها محمد : فالى الفيلسوف المسلم ابن رشد الذى عاش فى اسبانيا من سنة ١١٢٠ الى سنة ١١٩٨ ـ يرجع الفضل فى ادخال حرية الرأى ـ التى يجب أن لا نخلط بينها وبين الالحاد ـ الى أوربا ..

وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة ، والتجسيم المسيحى ، بعقيدة الايمان بالله وحده فى الاسلام ، وتحمس أحرار الفكر فى العصر الوسيط الاوربى لشروحه لارسطو ، وان كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة اسلامية قوية .. ويمكن أن يعتبر ـ بحق ـ ان التيار الفكرى الذى نشأ عن هذا التحمس لابن رشد ، كان أصل التفكير المنطقى الحديث ، فضلا عن كونه من أصول الاصلاح الدينى .

اثر الاخلاق الاسلامية :

ولم يكن أثر الأخلاق الاسلامية بأقل من ذلك شأنا فى أوربا ، فقد كان العرب يمتازون ، الى جانب روح التسامح الدينى ـ التى سوف نتحدث عنها فيما بعد ـ بأخلاق الفروسية القوية .. وفى ذلك يقول الكاتب الاسبانى الكبير « بلاسكوايبانيز » فى قصته « فى ظل الكنيسة » :

« لقد نشأت روح الفروسية بين عرب اسبانيا ، وأخذها عنهم فيما بعد أهل الشمال ، زاعمين أنها طبيعة من طبائع الامم المسيحية » ..

ولنذكر فى هذا الصدد مرة أخرى ، ملاحظات الدكتور جوستاف لوبون ، اذ يقول :

« لقد كانت للفروسية العربية أصولها ، كما للفروسية المسيحية التى جاءت بعدها ، فلم يكن المرء فارسا الا اذا تحلى بالخصال العشر التالية : الصلاح ، والكرامة ، ورقة الشمائل ، والقريحة

الشعرية ، والفصاحة ، والقوة ، والمهارة فى ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب .

«وقد حاصر والى قرطبة فى سنة ١١٣٩ مدينة طليطلة التى كانت بيد النصارى ، فأرسلت اليه الملكة « بيرانجير » التى كانت فيها رسولا يبلغه أنه ليس من مروءة فارس كريم رقيق الشمائل أن يحارب امرأة ، فارتد القائد العربى من فوره ، ولم يطلب مقابل ذلك سوى أن يشرف بتحية الملكة » (١) .

« وسجلات تاريخ العرب باسبانيا حافلة بمثل هـذه النوادر التى تبين كيف كانت أخلاق الفروسية هذه ذائعة بينهم .. ويعترف عالم قوى الايمان هو « بارتليمى سانت هيلير » فى صدق وصراحة بما تدين به الاخلاق الاوربية للعرب ، اذ يقول فى كتابه عن القرآن :

« عندما اتصل الاوربيون بالعرب واقتدوا بهم ، لانت العوائد الخشنة لدى أشراف القرون الوسطى القساة ، وتطلع أهل الفروسية ـ دون أن يفقدوا لذلك طبائع الشجاعة والنخوة ـ الى مواطف أرق من عواطفهم وأشرف وأليق بالانسانية ، ومن المشكوك

---

(١) يقول المؤلف فى رسالته « اشعة خاصة بنور الاسلام » ما يلى :

« وقد حفظ لنا التاريخ فى سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقة والتهذيب ، وقد ذكر منها الكثير واصف باشا بطرس غالى فى كتابه « فروسية العرب المتوارثة » وهو وان كان قطعيا مسيحيا فان لاقواله قيمة عظيمة وهى الرد الصحيح على ما جاء به « بيرون » من الادعاءات والتعصب .

يقول واصف باشا : « كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن ، وربما كان ذلك بالقدورة الحسنة التى استنها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التى وضعها ، وهو يعد بحق من أكبر انصار المرأة العمليين ان لم يكن عظيم الاحترام والتكريم لهن ، لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته ، بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء ..

فهل تستطيع أن نقول شيئا من هذا عن الكثيرين من رجال الكنيسة ؟ .. وقد كان احدهم « سان بونافنتور » يقول الى تلاميذه : « اذا رايتم امراة فلا تحسبوا انكم ترون كائنا بشريا ولا كائنا وحشيا ، وانما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان »

فيه أن تكون المسيحية ــ مهما بلغت تعاليمها من السمو ــ هى وحدها التى أوحت اليهم بكل ذلك » .

السبب فى انكار علماء الغرب آثار الاسلام فى الحضارة الغربية :

ولعل القارىء يتساءل ــ والظروف كما ذكرنا ــ عن السبب فى انكار كل أثر للاسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب دينى ..

وتفسير ذلك : ان الواقع يشهد بأن حرية الرأى مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وان الانسان ليس حر التفكير على الاطلاق كما يشاء فى مسائل معينة ــ ثم ان التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الاسلام واتباعه ، قد عاش فيهم دهورا طويلة ، حتى أصبح جزءا من كيانهم ..

فاذا أضفنا الى هذا التعصب الدينى تعصبا آخر هو أيضا موروث تزيده الأجيال المتتالية تمكنا من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التى تسير عليها مدارسنا ، وهو ان كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها الى الاغريق واللاتين وحدهم ، ادركنا ــ فى يسر ــ كيف ينكر الناس عامة ، ذلك الاثر العظيم الذى كان للعرب فى تاريخ الحضارة الاوربية .

وسوف يبدو دائما لبعض العقول انه من المهانة ان تدين أوربا المسيحية للمسلمين باخراجها من ظلمات البربرية والتوحش ..

سبب تدهور المسلمين :

ولعلنا بعد هذا نتساءل : لماذا ــ اذن ــ وقع المسلمون فى مثل هذا التدهور السريع بعد أن ظل الاسلام طوال قرون ثمانية يجعل من اسبانيا الخاضعة له أرفع الامم الغربية حضارة ، ويرسل نوره الذى لا يخفت فى أرجاء العالم من دلهى وبخارى الى القسطنطينية وفاس ؟

السبب الاول : نجده فى الخروج عن مبادىء المساواة التامة

الشاملة التي بذل الرسول كل جهده خلال سنى حياته فى فرضها، والتى كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الاول .. ولنضرب لذلك مثلا يوضح كيف كانت هذه المبادىء تطبق فى شدة بالغة فى الصدر الأول للاسلام :

لطم جبلة ـ احد الامراء الاقوياء المعتدين بانفسهم ـ عقب اسلامه رجلا من البدو زاحمه فى الكعبة لطمة عنيفة ، فأمر الخليفة عمر أن يضرب البدوى الفقير الامير جبلة مثلما ضربه .. ولم يأبه عمر فى حكمه بمكانة المذنب ، ولا بخطورة اغضاب رجل له من الشأن ما لجبلة ، بل رأى أن كرامة الاسلام ومستقبله يقتضيان تطبيق مبادىء المساواة أمام القانون قبل اى اعتبار آخر .

وبفضل هذه المبادىء القوية التى لا تلين ، لم يكن لاحد ان يفخر الا بما عمل ، وأدى التنافس بين المسلمين فى سبيل اعلاء كلمة الاسلام الى ضروب من المعجزات ، ولم يرقَ الى مناصب القيادة سوى الجديرين بها ـ وكان الناس يطيعون قادتهم فى كل صغيرة وكبيرة لانهم كانوا يحترمونهم ويجلونهم مخلصين ..

ولكن ـ للاسف ـ لم يحافظ المسلمون محافظة كاملة على هذه المبادىء الأساسية لدين محمد الا لفترة قصيرة .. ولقد رأينا التفاخر بالأنساب والقبائل يظهر من جديد بآثاره الهدامة فى عهد عثمان ثالث الخلفاء ، وأضاع الناس حكمة محمد التى تجلت فى وصيته لأبنته المحببة فاطمة الزهراء : « يا فاطمة بنت محمد ، انقذى نفسك من النار فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » ـ فقد ذهب أناس ـ هم دون ذلك شأنا ـ الى الفخر بآبائهم ، والى احتقار اخوانهم فى الاسلام الذين ينتسبون الى الطبقات المغمورة ، وظنوا انهم معفون لعراقة أصلهم من الجهاد فى سبيل الاسلام وفى سبيل الرزق ، ذلك الجهاد الذى بدونه لا يمكن تحقيق اى تقدم .

وبالاضافة الى ذلك ثارت المنافسات بين الذين يعتمدون فى حياتهم على مكانة أجدادهم اكثر مما يعتمدون على أعمالهم

الشخصية ، وكانت نتيجة ذلك قيام الفتن الاهلية التى تكاد تكون ـ فى عنفها واتصالها ـ مشابهة لما كان منها فى الجاهلية ، وترتب على ذلك أن تفكك النظام ، وظهرت من جديد تلك الفوضى العامة الشاملة ، التى كانت تشل أيدى العرب عن كل عمل مجد فى عصور ما قبل الاسلام ، وفقد المسلمون حب الاستطلاع ، وفرقت بينهم وانهكت قواهم الحروب الداخلية ، فلم يستطيعوا ـ الا قليلا ـ أن يقاوموا المسيحيين الذين انتهزوا فرصة هذه الفوضى بين المسلمين، لينظموا انفسهم وليحلموا بالاخذ بثأرهم ..

ولم يكن الاسلام ، سواء فى ماضيه أو فى حاضره ، ليصاب بتلك النكبات لو أن المسلمين عملوا دائما بتلك الوصية الاخيرة التى أوصاهم بها الرسول فى خطبته :

« أيها الناس ؟.. انما المؤمنون اخوة » ..

أما السبب الثانى فى تدهور العالم الاسلامى ، فهو ناتج عن التخلى عن احدى المميزات الاساسية للاسلام ، وهى التوافق التام بين العقيدة ـ التى تكاد تكون خالية من كل ما هو غير طبيعى ـ وبين ضرورات المنطق .. وكان لتلك الميزة فى العهد الاول أثر بعيد فى تقدم العلوم التى لم تعقها أية معتقدات خرافية .. وهذا يكفى لتفسير التطور السريع الذى تطورته الحضارة الاسلامية ، لكن الروح الاسلامية العلمية خمد حماسها شيئا فشيئا ، مكتفية بالنتائج الباهرة التى حصل عليها المسلمون فى حمية النشاط الذى كان فى القرون الاولى للهجرة ، ومنذ ذلك العهد والاسلام وقع تحت رحمة النزعات الخرافية والاشتراكية فى الأقطار الحديثة .

مستقبل الاسلام :

ان الجراح التى أصابت الاسلام ، خلال نصف القرن الأخير (١) قد أيقظته من سباته ، وأقنعته هزيمته نفسها بضرورة تبنى الوسائل العلمية التى يستخدمها انصاره ، وتذكر المسلمون أحاديث الرسول :

(١) يقصد القرن التاسع عشر

« أطلبوا العلم ولو بالصين ».
« العلم خير من العبادة » .
« يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء » .

ولقد قام مصلحون عباقرة - من أمثال الشيخ محمد عبده - برسم السبيل الذى يجب على المسلمين أن يسيروا فيه ، مبرهنين على انه يمكن التوفيق بين محمد وبين مقتضيات الحضارة الحديثة ، ولم يمض طويل وقت حتى ذهب الكثير من الشباب فى سائر البلاد الاسلامية ، الى التعلم على الطريقة الأوربية فى سهولة تكيف عجيبة ، دون أن يفقدوا شيئا من عناصر قوميتهم الأصيلة ، وسوف نرى عما قريب العدد العديد من المسلمين ، يحتلون مكانهم فى العالم الحديث ولا يهابون أن ينافسوا رجال الغرب فى ميدان الحضارة العصرية (٢).

لقد اعترض على امكانية هذه النهضة بأنه يقف فى سبيلها عقبات قوية هى : عقيدة القضاء والقدر ، والتعصب ، وتعدد الزوجات ..

عقيدة القضاء والقدر :

فلنعرض سريعا لهذه المسائل : هل عقيدة القضاء والقدر الاسلامية يمكن أن تتفق مع الجهاد الصحيح فى سبيل التقدم ؟ ..

اذا كنا نجد بعض الوجاهة فى شىء من النقد الموجه الى المسلمين فى هذا المجال ، فلأن بعض المسلمين : من أمثال أتباع « المرابطين » يسيئون فهم التوكل ، وعلى أى حال فلم يكن لهذا التوكل الأثر المبالغ فيه الذى يراد الصاقه به .. والاسلام ليس فيه من التوكل أكثر مما فى مذهب انكار فعل العزيمة الشخصية والقول بالأسباب الخارجية .

---

(٢) حذفنا من هنا بضعة سطور تاريخية لم تعد لها قيمة تذكر بعد مرور كل هذه السنين على تأليف الكتاب .

بل القضاء والقدر فيه يكون أقل خطورة منه فى المسيحية ، لو اتبع المسيحيون حرفية تعاليم الانجيل الذى يقول :

ولذا أقولها لكم : لا يقلقنكم أن تبحثوا عن الجهة التى تجدون فيها ما تأكلون وما تشربون لاستبقاء حياتكم ، ولا الجهة التى تجدون فيها الثياب لكساء أجسادكم » .

« انجيل متى : ٥ ، ١٨ ، ٦ : ٢٥ » ..

كيف نقول : ان عقيدة القضاء والقدر تشل كل عمل عند المسلمين ، والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان أنشط الناس واكثرهم مثابرة وجهادا ، والاسلام هو الدين الوحيد الذى جاء — عقب نشأته مباشرة — بالفتوح الواسعة العجيبة ، والحضارة السامية العظيمة ؟ ..

ان كلمة « اسلام » تعنى الرضاء بأوامر الله — أى بما لا يمكن لأى قوة انسانية أن تحول دونه ، ولكن ليس من معانيها الخضوع للأمور التى يبدو أنها يمكن أن يغير مجراها العمل والاقدام .. « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم » .. فهذه العقيدة — اذن — بعيدة كل البعد عن أن تكون مصدر ضعف .. انها على العكس من ذلك مصدر قوة نفسية لا تضارع بالنسبة الى المسلم تعينه على احتمال المحن والشدائد (١) .

التعصب :

ونعرض — بعد ذلك — لموضوع التعصب فنتساءل : الا يعوق تقدم المسلمين ، وعلاقاتهم بالمتحضرين من أبناء الأديان الأخرى ،

(١) فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال .. .. » الآيات

« يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ... » الآية

« فاما تثقفنهم فى الحرب ... .. »

وفى الحديث : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، « لان يأخذ احدكم حبلا »

تعصب هؤلاء المتحضرين العنيف الذى لا هوادة فيـــه ، والذى هم يرمون به المسلمين ؟ . .

والمسألة هنا ــ هى قبل كل شىء ــ أن نعرف ما اذا لم يكن هذا التعصب عند المسلمين أسطورة من تلك الأســـاطير التى لا تحصى ، والتى أذاعها أعداء الاسلام فى القرون الوسطى .

وفيما يلى بعض الوقائع اخترناها من بين عدد كبير من أمثالها ، نسردها هنا ليتمكن القارىء من الحكم فى هذا حكما صحيحا . .

يروى ابن جرير نقلا عن ابن عباس ، أن رجلا من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، وله ولدان مسيحيان ، وهو مسلم ، سأل الرسول صلى الله عليه وسلم فيما اذا كان يجب عليه اكراه ولديه على اعتناق الاسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحيـة ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة : « لا اكراه فى الدين » .

وعندما جاء رسل نجران المسيحيون المدينـة ليفاوضوا النبى منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه .

وقام محمد يوما لجنازة ، فقيل له : انها جنازة يهودى ، فقال : « أليست هى نسمة ؟ » .

وهو القائل :

« من آذى ظلما يهوديا أو نصرانيا كنت خصمه يوم القيامة . . قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم » .

والمسلمون ــ على عكس ما يعتقـده الكثيرون ــ لم يستخدموا القوة أبدا ــ خارج حـدود الحجـــاز : أى الأرض الحرام والمنطقة المحيطة بها ــ لاكراه غيرهم على الاسلام . . وان وجود المسيحيين فى اسـبانيا لدليل واضح على ذلك ، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التى ملك فيها المســـلمون بلادهم ، وكان لبعضهم مناصب رفيعة فى بلاط خلفاء قرطبة . . ثم اذا بهـؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان فى هذه البـلاد ، فكان أول هم

لهم أن يقضوا قضاء تاما على المسلمين ، وقد الحقوا بهم أيضا اليهود الذين عاشوا فترة آمنة هادئة تحت حكم المسلمين ..

وفى كتابه « رحلة دينية فى الشرق » يشيد الأب « ميشون » بالحقيقة فى صيحته الصادقة : « انه لمن المحزن بالنسبة الى الدول المسيحية أن يكون المسلمون هم الذين علموها مبادىء التسامح الدينى الذى هو الناموس الأكبر للرحمة والاحسان بين الأمم (١) » .

وقد يعارض قوم فيذكرون مذابح الأرمن ، ويتساءلون : ما القول فيها ؟ .. والرد على ذلك أن المسلمين الحقيقيين يستنكرون كل شيء من هذا القبيل مالم تدع اليه الفتن والمؤامرات ، تماما كما يستنكر المسيحيون الحقيقيون مذبحة جميع المسلمين فى اسبانيا .

والواقع أن مذابح الأرمن لم تكن قط لأسباب دينية ، ذلك لأن اتباع دين محمد لم يدر بخلدهم قط أن يقتدوا بأنصار «توركويمادا» فيخيرون الأرمن بين ترك المسيحية الى الاسلام وبين أن يحرقوا أحياء .. وعلى أى حال ، فالمسلمون لا يأنسون فى أنفسهم أى ميل لرد الناس عن دينهم ، وليس لهم مبشرون حقيقيون واذا كان الاسلام هو الدين الذى يجذب اليه أكثر الناس فى افريقيا وفى آسيا فى عصرنا هذا ، فذلك — كما لاحظه ملاحظة صحيحة المسيو . بوردو — « يرجع الى نوع من الامتصاص المعنوى (١) » .

وان القدوة الحسنة التى لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة ، لهى أقوى اثرا فى النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين .. ولقد اضطر العالم « دوزى » — رغم تعصبه ضد الاسلام — الى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا فى أسبانيا « اعتنقوا الاسلام عن عقيدة » ..

والقاعدة التى يجرى عليها المسلم ، فى علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى ، هى تلك التى حددها القرآن فى الآية التالية :

---

(١) نقلا عن « الكونت دى كاسترى » فى كتابه عن الاسلام

(١) عن : أ. بوردو (العرب فى افريقية الوسطى)

« لكم دينكم ولى دين » ..

وكيف لا يكون المسلم متسامحا ، وهو يجل الأنبياء الذين يجلهم اليهود والنصارى فموسى بالنسبة اليهم « كليم الله » وعيسى « روح من الله » يجب تبجيلهما كما يبجل محمد « حبيب الله » . « لا نفرق بين أحد من رسله » ..

ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة فى حق عيسى ، وكذلك لن يقبل أن يدع أحدا يتفوه بمثل هذا فى حضرته ، حتى وان كان من يحدثه من هؤلاء المسيحيين الأصليين الذين يريدون أن يجعلوا من عيسى المسئول عن الأخطاء الكهنوتية ، وسب المسيح لا شك يعتبر سبا للاسلام الذى يأمر باحترامه .. ولقد أتيح لنا أن نشهد حادثا عجيبا ، هو أن قاضيا مسيحيا حكم على رجل مسلم لضربه يهوديا بدرت منه أمامه أقوال بالغة الاسفاف فى شأن ولادة عيسى ..

ولنقارن الآن بين موقف الاجلال هذا الذى يقفه المسلمون من عيسى ، وبين ما صنعه الأوربيون من سيرة محمد :

ففى العصور الوسطى ، كان الرهبان يصورونه تارة فى صورة صنم بشع ، وتارة فى صورة سكير مدمن ... الخ ...

ولو أننا أردنا أن نثبت هنا كل ما تمخضت عنه قديما مخيلات أعداء محمد الخصبة لما انتهينا الى حد ..

لم يكن المستشرقون الأول بأقل عنفا فى مهاجمته من هؤلاء :

والعالم جانييه ـ فى القرن الثامن عشر ـ يعيب على القس المراكشي والدكتور بريدو اسفافهما المتحيز ضد محمد ، ولكنه ـ فيما بعد ـ يسف أكثر من اسفافهما ، ويصف محمدا بأبعد الأوصاف عن سيرته ، ومع هذا فالعالم جانييه يزعم أنه معتدل كل الاعتدال فى حكمه ..

ومن زمن بعيد وأعداء الاسلام يلحقون الأذى بأصحاب محمد أيضا ، وقد ألف بعضهم تلك الأسطورة الذائعة التى تقول بأن الخليفة

عمر احرق الاسكندرية ، ولم يكن غرضهم من ذلك الا أن يجعلوا الناس تنسى العمل الوحشي الذى قام به الكاردينال كسيمينيس من احراق دور الكتب البديعة التى كانت للمسلمين باسبانيا ، وهم فى زعمهم هذا يبدون استخفافا لا حد له بوقائع التاريخ .. ذلك أن مكاتب الاسكندرية قد خربت قبل مجيء الاسلام بقرون متعددة ، وأولى هذه المكاتب هى مكتبة البروخيوم التى كانت تحتوى على أربعمائة الف مجلد ، وقد احرقت أثناء الحرب التى نشبت بين قيصر والاسكندريين .. وثانى المكاتب هى مكتبة السرابيوم التى ضمت فى يوم من الأيام مائتى ألف مجلد أوصى بها لها انطونيوس ، وقد نهبت هذه المكتبة وخربت تماما فى عهد ثيودوزيوس ..

وقد أنشأت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى فى أيامنا هذه .. على أننا نفضل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التى يريد بعض الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من طبائع القرون الوسطى المسيحية ، أن يذيعوها ـ تحت ستار من العلم الاستشراقى الظاهرى ــ فى حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم ــ أكثر من غيرهم ـ تاريخ الانسانية نفسه ..

وقد يسأل سائل : ألا ينتهى الأمر بالمسلمين بعد أن تبنوا حضارة المسيحيين الى أن يتدينوا كذلك بالمسيحية ؟ . ويكفينا للاجابة على هذا السؤال أن نورد رأى كاتب صريح فى اعترافه بالواقع رغم تمسكه الشديد بدينه ــ ذلك الكاتب هو : « الكونت دى كاستر » الذى يقول فى مؤلف له ممتاز عن الاسلام : ــ

« الاسلام هو الدين الوحيد الذى لا تجد فيه مرتدين ... ومن العسير ، بل من المحال أن نتصور صورة دقيقة للحال النفسية التى يكون عليها المسلم اذا ما حاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية .. لعلنا نجد صورة مقاربة شيئا ما لهذا ، اذا ما تخيلنا احساسات وشعور رجل مسيحى مستنير يحاول أحد الوثنيين أن يجتذبه الى اعتناق خرافاته المرذولة (١) » .

---

(١) من الكونت هنرى دى كاستر « الاسلام »

العلة فى بغض المسيحيين للاسلام :

فما عسى أن تكون علة ذلك البغض الذى يلاحق به المسيحيون الاسلام حتى فى عصرنا هذا ، عصر التسامح ، ولا نريد أن نقول : عصر عدم المبالاة بالدين ـ فى حين أن الاسلام يقدم لهم كثيرا من الأدلة التى تؤكد احترام عيسى وتبجيله ؟ !

هل يكون ذلك لأن الاسلام كانت نشأته فى آسيا ؟

ولكن ، ألم تكن المسيحية فى جوهرها ، ديانة آسيوية قبل أن يخلصها بولس القديس من اليهودية ؟ وقد قال عيسى نفسه : « لم أرسل الا الى خراف اسرائيل الضالة » (انجيل متى ١٥ ـ ٢٤) .

ولعل العلة فى العقيدة نفسها ؟ ولكن عقيدة الاسلام تكاد تكون مماثلة لعقائد بعض الفرق البروتستانتية التى تأثرت بالاسلام فاحتذت حذوه ..

أو هل سبب ذلك يرجع الى الآثار التى خلفتها الحروب الصليبية فى النفوس ؟

ذلك أمر لا شك فيه ، فرغم مضى زمن طويل على هذه الحروب نجدها لا تزال تفعل فعلها المشئوم فى نفوس الكثير من الجهلاء .

ولكن هذا الأمر وحده ، ليس بكاف لتفسير ما حكم به على الاسلام فى أوروبا من نفى وتحريم .

فعلينا اذن أن نبحث عن تعليل آخر وسوف نتبين جلية الأمر ، اذا ما تأملنا المثل الذى تقدمه لنا ديانة أخرى ! تقابل حقا فى أوربا بمثل ما يقابل به الاسلام ، من النفور والاضطهاد .

تلك هى ديانة فرقة (المورمون) وهى من الفرق البروتستانتية وقد أظهر أصحابها العجب العجاب من قوة العزيمة والذكاء والمثابرة ، فأحالت الصحراء ، ذات الأرض الملحة الكئيبة التى قطنت بها ، الى بلد خصب زاهر ، وكان على أهل أوروبا وأمريكا جميعا أن يشيدوا بهذا العمل النافع لحضارة الانسانية ومبدأ استحسانهم له . ولكن سائر شيع المسيحية ، على العكس من هذا ، تناست

احقادها وخلافاتها الخاصة لتتألب على المورمون ، يجمعها فى هذا شعور متماثل من الكره لهم .

فماذا كان الجرم الذى اقترفه هؤلاء المورمون ؟

لم يكن لهم من جرم الا انهم ـ كالمسلمين ـ يستحلون تعدد الزوجات . ومفتاح هذا السر اذن هو : تعدد الزوجات .

وان فى ذلك لانذار للأمم الاسلامية بانها لن تحصل قط ، على حق الدخول فى زمرة الأمم المتحضرة ، ما لم تتنكر لمبدأ تعدد الزوجات !

تعدد الزوجات :

ولن نخاطر هنا محاولين الدفاع (١) عن عادة يحمل عليها الناس بمثل هذه الشدة ، لكننا نقتصر على عرض بعض الملاحظات .

---

(١) لقد دافع المؤلف دفاعا مجيدا عن مبدأ تعدد الزوجات فى رسالته القيمة « اشعة خاصة بنور الاسلام » .. ونحن ننقل دفاعه الرائع فيما يلى :

مسايرة الطبيعة :

لا يتمرد الاسلام على الطبيعة التى لا تغلب ، وانما هو يساير قوانينها ، ويزامل ازمانها ، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة ، مثل ذلك الفرض الذى تفرضه على ابنائها الذين يتخذون الرهبنة فهم لا يتزوجون وانما يعيشون أعزابا ..

وعلى ان الاسلام لا يكفيه ان يساير الطبيعة ، وان يتمرد عليها ، وانما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها اكثر قبولا وأسهل تطبيقا ، فى اصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك « بالهدى » لانه المرشد الى اقوم مسالك الحياة ، ولانه الدال على احسن مقاصد الخير .

والامثلة العديدة لا تعوزنا ، ولكنا للقصر نأخذ باشهرها ، وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع ، والذى جلب للاسلام فى نظر الغرب مثالب جمة ومطاعن كثيرة .

ومما لا شك فيه أن التوحيد فى المزوجة هو المثل الاعلى ، ولكن ما العمل ؟ وهذا الامر يعارض الطبيعة ، ويصادم الحقائق .. بل هو المحال الذى يستحيل تنفيذه .. لم يكن للاسلام امام الامر الواقع ـ وهو دين اليسر .. الا انه يستبين اقرب انواع العلاج ، فلا يحكم فيه بحكما قاطعا ، ولا يأمر به امرا باتا .

والذى فعله الاسلام اول كل شىء انه أنقص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الاقدمين مباحا دون قيد ، ثم اشار بعد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله تعالى :

« وان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة »

وای رجل فی الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعـددات .. ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الاسلام وضعا هو غاية فى الرقة والدقة واللطف مع الحكمة .

ثم انظر : هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها فى تطبيق ذلك ، قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقـول ذلك دون أن يأخذ منـه الضحك مأخذه ؟.. والا فهؤلاء ملوك فرنسا .. دع عنك الافراد ـ الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنسـاء الكثيرات ، وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم واكرام ..

ان تعدد الزوجات قانون طبيعى ، وسيبقى ما بقى العالم ، ولذلك فان ما فعلته المسيحية ، لم يأت بالغرض الذى أرادته ما انعكست الآية معها ، وصرنا نشـهد الاغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها فى ذلك مثل الشجـرة الملعونة التى حرمت ثمارها فكان التحريم اغراء ..

على أن نظرية التوحيد فى الزوجة ، وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الاخص فى ثلاث نتائج واقعيـة شديدة الخطر جسيمة البـلاء .. تلك هى : « الدعارة ، والعوانس من النساء ، والابنـاء غير الشرعيين » ..

وأن هذه الامراض الاجتماعية ذات السيئات الاخلاقية ، لم تكن تعـرف فى البلاد التى طبقت فيها الشريعة الاسلامية تمام التطبيق ، وانما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية .. ومن الامثلة القائمة على ذلك ، ما كان من أمر وادى « ميزاب » حيث تسكن القبيلة التى بهذا الاسم فى بلاد الجزائر ، اذ لم تدخلها الدعارة الا بعد ضمها الى فرنسا عام ١٨٨٣ وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كل سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الوبيل ..

ومما نرويه من هذا القبيل : ما جاء فى كتاب « الاسلام » تأليف «شتمزدومولان» أنه عندما غادر الدكتور « مافروكوردانو » الاستانة ١٨٠٧ الى برلين لدراسـة الطب ، لم يكن فى العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة ، كما لم يعرف فيها داء الزهرى « وهو السفيلس المعروف فى الشرق بالمرض الافرنكى » ، فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أى سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال ، وفى ذلك يقول الصدر الاعظم الكبير رشيد باشا فى حسرة موجعة : اننا نرسل أبنـاءنا الى أوربا ليتعلموا المدنية الافرنكية ، فيعودون الينا مرضى بالداء الافرنكى » ..

على أنه من جهة أخرى نرى أن العلاقة قد تخفف بعض الشىء من أضرار هذا التعنت فى القصر على زوجة واحدة ، ولكن من جهة ثانية نرى أن العـلاقة سيئة من السيئات .. اذن ، ماذا ؟ .. اذن أى الادوية قد خلا تماما من بعض السيئات

على أن الكنيسة قد أساءت ـ كذلك ـ فى مسألة العلاقة ، بمثل ما أساءته فى أمر التوحيد فى الزوجة ، وذلك بمخالفتها أيضا لقوانين الطبيعة ..

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع فى سائر أرجاء العالم ، وسوف يظل موجودا ما وجد العالم ، مهما تشددت القوانين فى تحريمه .

ولكن المسألة الوحيدة هى معرفة ما اذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد ، أم أن يظل نوعا من النفاق المتستر ، لا شيء يقف أمامه ويحد من جماحه ..

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين ـ ونخص منهم بالذكر « جيراز دى نيرفال » و « الليدى مورجان » ـ أن تعدد الزوجات عند المسلمين ، وهم يعترفون بهذا المبدأ ، أقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية : فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم فى هذا .

ولكن : هل تعدد الزوجات ـ حقيقة ـ أمر يصح أن نعلق عليه كبير اهتمام فى عصرنا هذا ؟.. ان مقتضيات الحياة الحديثة ـ ولندع جانبا كل الظروف الأخرى ـ تجعل من العسير جدا وجود تعدد الزوجات فى المدن الكبيرة .. وسوف يزول هذا الأمر بين المسلمين الذين يأخذون بأسباب الحضارة الحديثة خلال فترة قصيرة ، واذا كان مبدأ التعدد سوف يبقى ، فلن نجده مطلقا الا فى قلب البادية ، حيث تضطر الناس اليه ظروف الحياة التى لا مفر منها .

ومع ذلك !.. فاننا نتساءل : هل فى زوال تعدد الزوجات فائدة

أنظر .. هل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبرا ؟ وقد خاب ظنهما فى الزواج ولم يدركا السعادة التى طلباها من وراء ذلك ، هل ... كذلك اذا كان أحدهما عاقرا ، او كان غير كفء بقية أيامهما فى عذاب ونكد أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا بقضيان بقية ايامهما فى عذاب ونكد وشقاء ... كذلك اذا كان احدهما عاقرا ، او كان غير كفء لزميله ، هل يحرم الاخر من أن يبتنى لنفسه بآخر ، وأن يقيم له عائلة من جديد ..

واننا نحن فى صدد الطلاق لاتفوتنا حكمة التشريع الاسلامى ، وهو يرى السوء فى توقى الطلاق ، فيسمع النبى الكريم يقول : « أبغض الحلال الى الله الطلاق »

اخلاقية ؟.. ان هذا أمر مشكوك فيه : فالدعارة التى تندر فى أكثر الأقطار الاسلامية ، سوف تتفشى فيها وتنشر آثارها المخربة ، وكذلك سوف يظهر فى بلاد الاسلام داء لم تعرفه من قبل ، ذلك هو عزوبة النساء التى تنتشر بآثارها المفسدة فى البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة ، وقد ظهرت فيها بنسبة مفزعة ، وخاصة عقب فترات الحروب ..

كتب شارل دوماس عن المسلمين ، فى احدى دراسات حول مستقبل المستعمرات الفرنسية :

« ان جنسا لا يمكن أن يتحرر قط اذا قضى على نصفه ــ يعنى النساء ــ بالرق الأبدى » .

الحجاب :

فهل المسلمات حقيقة قد قدر لهن حال من الذلة يرثى لها الى هذه الدرجة ؟..

لا شك أن الحجاب وشبه الحبس فى البيت المفروضين على المرأة المسلمة ، يبدو لعين المرأة الأوربية المغالية فى التحرر ، أنه من مظاهر الرق البالغ القسوة ، فتظهر عطفها على المسلمات وترثى لحالهن ، ولكنها لو علمت بما تسره هاتيك المسلمات من مشاعر وأفكار ، لعجبت أن رأت نفسها هى الأخرى محل عطف من جانبهن ورثاء ــ لا موضوع حسد كما كانت تظن .

ومن ناحية أخرى ، فان التحجب ولزوم البيت ، ليسا على أى حال من الفروض الدينية بالنسبة للمسلمات .. فنصوص القرآن (سورة الأحزاب : ٥٣ ــ ٥٥) التى تتخذ حجة فى ذلك تنطبق فقط على نساء النبى ولا تتعلق بسائر نساء المسلمين ، كما قد توحى بذلك ترجمة كازيميرسكى الخاطئة للآية ٥٥ من سورة الأحزاب .

لذلك فان مثل هذه التقاليد التي دخلت على الاسلام بعد موت

محمد بسنين عديدة ، كانت محل نقد شديد من جانب المدافعين عن حقوق المرأة .

ولنذكر من بين هؤلاء : قاسم (بك) أمين بكتابه « تحرير المرأة » والزهاوى شاعر بغداد برسالته المشهورة عن « الحجاب » التى يشيد فيها بفضل المرأة ويعتمد على الآية « .. ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف .. » فى مطالبته بالتحرير الكامل للنساء ..

وأخيرا السيدة ملك حفنى ناصف التى نشرت ــ بعد استئذان أبيها أحد علماء الأزهر القدماء ــ قصيدة تحتج فيها بأن رفع الحجاب اذا كانت المرأة فاضلة ــ ليس بشىء ذى ضرر ، أما اذا كانت نيتها سيئة فلن يجدى معها أى حجاب ..

ومن المحتمل أن نشهد عاجلا أو آجلا زوال عادة التحجب فى الشرق فى الوقت نفسه الذى تحاول فيه بعض الأوربيات المتأنقات ادخال « مودة » النقاب التركى فى المجتمع الغربى .. وبهذا تخلع زهرة الجمال الاسلامى ذلك الثوب اللطيف الذى كان يحفظها من الأعين ، ولكن ! ــ ألن تأسف النساء الشرقيات على السحر الخفى الذى كان يسبغه عليهن النقاب ؟..

وهل يجدن فيما تجنينه من الازدهار تحت أضواء المدنية القاسية ما يعوضهن عن ذلك ؟.. اننا نخشى أن تخرج الشرقية الى الحياة العصرية ، وعيناها مبهورتان بأحلام الحريم ، فينتابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات ، اللائى يسعين للعيش ، وينافسن فى ذلك الرجل ، من أمثلة الشقاء والبؤس الكثيرة .. ولكننا لا نريد أن نصدر حكما فى مثل هذه المسألة الشائكة (١) .. وعلى أى حال فان أهمية مثل هذه الاصلاحات وامكانها يختلفان اختلافا كاملا ، حسب البلاد التى تهمنا .. ولذلك فانه من المحال أن تؤدى بنا مناقشة المسألة الى وضع قاعدة شاملة .

---

(١) لم يصدر المؤلف حقا حكما فى هذه المسألة وكل ما اراده انما كان اظهار مرونة الاسلام ومسايرته لمختلف الازمان ، ولقد قال مرة أحد كبار المؤلفين : إن معنى الحجاب فى الاسلام هو ان تحتجب المراة عن مواطن الريب .

ولكننا مع ترددنا فى اصدار حكم فى الاصلاحات التى عرضناها ، نعترف صراحة ودون قيد ، بأن تعليم المرأة ضرورة بالغة الأهمية بالنسبة الى مستقبل الاسلام ..

والتعليم ليس له علاقة بالتقاليد والعـادات التى تعرضنا لها آنفا ، وهو يساير كل المسايرة جميع تعاليم الدين ، وقد كان فى عصر ازدهار الاسلام يفاض فيضا على المسلمات ، وكانت ثقافتهن حينذاك أرفع من ثقافة الأوربيات دون جدال .

والواقع أن التعليم فى الشرق لم يندثر كلية مثلما اندثر فى بعض أقطار المغرب .. ومنذ بضع سنين ، والكثير من المسلمات يشغلن أوقات فراغهن فى خدورهن بالتعلم .. وقد بدأ مستواهن الثقافى يرتفع عامة ..

وعلى التعليم وحده يجب أن يعتمد التطور الاجتماعى ، فى الميادين التى يكون فيها ضروريا على أن يقدر ويوجه بحيث لا تكون له آثار غير محمودة فى نظام الأسرة (١) .

---

(١) وكثيرا ما يخلط الكتاب بين الحديث عن تعليم المرأة والحديث عن مسألة الحجاب ، وقد بين المؤلف ان لا صلة بين الحديث فى هذه وتلك .

خاتمـــة

الاسلام والعصر الحديث :

فاذا ما فصل فى مسألتى تعدد الزوجات وتحرير المرأة (وهما المسألتان الوحيدتان اللتان نجد لنقد الناقدين فيهما ظاهرا من الحق) بدا الاسلام على حقيقته : دينا يتمشى فى روحه تماما مع احدث الاحتياجات والأفكار العصرية حتى أن رجلا من الانجليز هو « أوزوالد ويرث » كتب يقول : « اننى تبينت اننى أدين بدين الاسلام دون شعور منى بذلك ، كما تبين المسـيو جوردان ، أنه يتحدث « النثر » دون علم منه بذلك أما جرت فانه بعد أن درس أصول الاسـلام أعلن : اذا كان الاسـلام هو هـذا ، أفلا نكون جميعا مسلمين ؟ ! »

وبعد مدة يسيرة من الزمن سيكون من حق الاسـلام المطالبة بحقه فى الحضارة الحديثة ، لأن الأساطير الصبيانية المفتراة عليه من عهـد الحروب الصليبية الى الآن لم يبق أحـد يجرؤ على التسليم بها .

المسلمون ومساعدة فرنسا :

وبينما نحن نصل فى كتابنا الى هذا الحد ـ اذا بأوربا تفاجأ بأعظم حرب عرفها التاريخ منفجرة فى قلبها ، وتشاهد الوفا من جنود المسلمين من سلالة غزاة مدينة بواتييه ، قد أغاروا من جديد على فرنسا كلها . ولكنهم لم يأتوا هذه المرة فاتحين كما جاء آباؤهم الغزاة ، بل جاءوا أصـدقاء واخوان سلام ، دعاهم حلفاؤهم الى مشاركتهم فى الجهاد الذى يتوقف عليه مصير الحضارة فأخلصوا فى الدفاع عن الحضارة اخلاصا أثار اعجاب حلفائهم وكل من وصلته أخبار بسالتهم ، وبهذا غرسوا الاسلام الى الأبد فى قلب أوربا بأمجد طريقة وأشرفها ، أعنى بذلك قبورهم : الكثيرة التى تغطى أرض فرنسا .

واوروبا اليوم أرضها تحوى عددا من أتباع النبى محمد ، وهم بعد أن أدوا مثل هذه الخدمات للحضارة يشق عليهم أن يحرموا من شيء استشهد الكثير منهم فى سبيل الدفاع عنه .

وليس من المعقول أن تكون خدماتهم الجليلة للحضارة والمحافظة عليها ، وأسوتهم الحسنة التى انتهت بتفهم الناس لحقيقة الاسلام وبساطته البديعة وبازالة الكثير من الاتهامات التى كانت للناس فيما مضى لا تحدث فى بعض نفوس الأوروبيين أفكارا جديدة عن الاسلام ليس فيها افتراؤهم السابق .

تطلع أوروبا الي الروحانية :

وكثير من ذوى العقول المستنيرة بعد أن أفاقوا من غفلتهم وبعد أن عرفوا اخفاق المذهب القائل بأن العقل يستقل بالمعرفة ، يسعى جاهدا لتعرف الهداية . وان مذهب الحدس الذى يتهافتون عليه ، خلف حامل لوائه المسيو برجسون الشهير ، وهو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو بتعبير أدق : هو رد فعل لعجز مذهب استقلال العقل بالمعرفة .

وقد وجد هذا الفكر ، فى قلوب الناس النهمين فى الايمان ، آمالا كان يبدو أنها انتهت الى غير ما رجعة ، فهو يؤلمهم فى خلود الروح . وبذلك تكون الحياة الدنيا ليست مشتبكا عظيما لقوى عمياء ، وأن العقل وسيلة فقط من وسائل المعرفة . ومع تأكيده بكل هذا لم يزد على أن بعث أفكارا طال عليها العهد وأبرزها بطريقة يسهل فهمها ، واختار الوقت المناسب الذى يساعدها على أن تهيىء عناصر دين جديد ، يشعر كثير من الناس بشدة حاجتهم اليه (انظر كتاب حقائق الحياة لجوستاف لوبون) . ان حركة هذا الفيلسوف لا تقاوم ، وخصوصا بعد دماء كثيرة سفكت بعد فتن عظيمة ، وسنشهد اذن مجهود الديانات القديمة والحديثة وهى تعمل جاهدة لاحتكار هذه الحركة لفائدتها ، ولكن المذهب القائل باستقلال العقل بالمعرفة ، حتى فى حال انهزامه ، لن تكون ثمرته

اقل : وسوف يقيم عقبة كأداء بين العقل والعقائد التى تتصادم معه تصادما عنيفا .

ومن جهة أخرى ، الا ينبغى لنا أن نحسب حساب النزعات الصوفية العاطفية الشاعرية ؟ أليست تلك النزعات عللا جوهرية فى وجود كل دين ؟ واذا أردنا تلخيص الأمر فى جمـــلة واحدة ، أفلا نستطيع أن نقول : ان الزم لزوميات الدين العصرى هى تلك التى يتميز بها الاصلاح الدينى المتطرف من توحيد يكسوه ثوب رائع من الشاعرية ؟

وحينئذ يكون الاسلام قد توافرت فيه شروط الدين الحنيف الذى يتوقون اليه اذا تجرد من الزبد الذى طغى خلال جريانه . وقد نشأت جماعات صغيرة من الأوربيين الداخلين فى الاســلام فى انجلترا وأمريكا ، احداها وهى التى يديرها المستر كويلم ، تقيم فى ليفربول ، منــذ عدة سنوات ، واشتهرت بأن معظم من دخلوا الاسلام فيها من النساء . ولقد كان لاسلام عضو بارز فى انجلترا هو اللورد هدلى الذى تبعه فى الاسلام بعض وجهاء لوندرة وأعيانها وقع فى النفوس ، وتنشر الجماعة الاسلامية مجلة شهرية تدعى « المجلة الاسلامية » التى أسسها هذا الرجل العالى القدر نقتبس منها ردها على السؤال الذى كثيرا ما يرد وهو : لماذا أسلم بعض الانكليز وغيرهم من الأوروبيين ؟

« ذلك لأنهم كانوا يلتمسون عقيــدة سهلة معقولة عمليــة فى جوهرها ، لأننا نتبجح معاشر الانجليز ، بأننا أكثر أهل الأرض تشبثا بالعمل . عقيدة تكون ملائمــة لأحوال الشعوب جميعا وأعمــالهم وعاداتهم عقيدة دينية صحيحة يقف المخلوق بها أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط » (شلدريك)

من مميزات الاسلام :

وهناك شىء مهم وهو انتفاء الواسطة بين العبد وربه ، وهذا هو الذى وجدته العقول العملية فى الاسلام ، لخلوه من الأسرار وعبادة

القديسين ، ولا حاجة به الى الهياكل والمعابد لأن الأرض كلها مسجد لله ، وفوق ذلك قد يجد بعض اهل مذهب الاعتقاد بالله دون غيره من العصريين المتحيرين فى التعبير عما يخالج نفوسهم من التطلع قد يجدون فى الاسلام المذهب النقى للاعتقاد بالله. فيجدون فيه أبدع واسمى اعمال العبادة وما يمكن أن يتخيله من معنى الفاظ الدعاء . ثم نزيدك شاهدا آخر وهو قول شرفيس : « الاسلام يحقق أبلغ معنى لفضيلة الايثار على النفس بأقل بحث فيها من الوجهة النظرية » وقد حصل فى فرنسا وفى بلاد أخرى من أوروبا وافريقيا وآسيا دخول أشخاص فى الاسلام فرادى ، وربما كان ذلك مصداقا لهذه الحديث النبوى الذى معناه « قد يؤيد الله هذا الدين بالغرباء منه » (١) .

ومن مميزات الاسلام الأصيلة ملاءمته لجميع الأجناس البشرية فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الاسلام ، بل كان من ضمنتهم من هو من فارس كسلمان الفارسى وبعضهم من النصارى كورقة(٢) ، وبعضهم من اليهود كمخيريق وعبد الله بن سلام ، وبعضهم من الأحباش كبلال وغيرهم ، وجاء فى القرآن الكريم : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (السورة ٣٤ آية ٢٧) فدين الرسول محمد عليه السلام ، قد أكد من الساعة الأولى لظهوره ، وفى حياة النبى عليه السلام ، أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، واذا كان صالحا بالضرورة لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة والفطرة لا تختلف فى انسان عن آخر . وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة ، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة ! سواء بالنظر لمذهب المعتزلة ، أو بالنظر لمذهب الصوفية ، يؤدى للعالم هداية وتوفيقا سواء فى ذلك الأوربى

(١) يعلق الاستاذ عبد العزيز محمد على هذا بقوله : لا يعرف حديث بهذا المعنى ، بل الاسلام صلة ولحمة بين جميع المسلمين مهما اختلفت وتباعدت أوطانهم ﴿ انما المؤمنون اخوة ﴾ .

(٢) ورقة كان على اتم استعداد للاسلام لو أمر الرسول بالدعوة حال وجوده .

المتحضر والزنجي الأسود ، من غير أن يعوق حرية الفكر عن أحدهما ثم يزيد على ذلك بالنسبة للزنجي انتشاله من عبادة الأوثان .

ثم هولا يعوق الرجل العملي الذى يرى حياته فى العمل ويعتبر الوقت من ذهب كالرجل الانجليزى ، وكذلك لا يعوق الرجل الصوفى والشرقى المتأمل فى بدائع الصنع ، ويأخذ بيد الغربى المأخوذ بسحر الفن والخيال . وليس هذا فحسب بل هو يستولى على لب الطبيب العصرى أيضا ، بما فيه من الطهارة المتكررة فى اليوم والليلة ، وتناسق حركات المصلى فى الركوع والسجود ، وما فيها من نماء للجسم وافادة للصحة الجسيمة والنفسية .

وعلى هذا فليس من الجراة اذن ، أن نظن انه اذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الاسلام ، ووضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات أنه سيرى مستقبلا حافلا بأعظم الآمال وأعلاها شأنا .

فاذا ما دخل فى الحضارة الأوروبية بفضل اشتراكه العظيم فى الحوادث فسيتضح سناه الحقيقى ، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التى حجبت عنهم وسيمد الكل يده لمحالفته ، متنافسين فى ذلك ، لأن قيمته قد خبروها وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا نفاذ .. ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وافاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لا تعرف الجور فى معاملتها لكل رعاياها ، لا فرق بين مسلم ومسيحى ويهودى ، وتبوءوا مكانهم الذى يليق بمجدهم أن شاء الله .

الخــــاتمة

ايها المسلمون :

ان عناصر كثيرة قد تجمعت الآن فى موقف عدائى للاسلام تريد ان تقضى عليه .. وكل عنصر من العناصر وضــع خطة مدروسة مستقلة أو متعاونة مع الآخرين لهدم الاسلام فى جانبه الأخلاقى ، ولهدمه فى جانبه العقدى ، ولهدمه فى جانبه التشريعى .. واصطنعت هذه العناصر معاول من الداخل ــ فى مختلف الدول الاسلامية ــ تتخذ صورة المقالات أو الكتب أو الاذاعات ــ للعمل على التحلل الأخلاقى ، والتشكيك العقدى ، والنيل من التشريع الاسلامى .

لقد كتب كاتب معروف يقول :

« أن من علامات التحضر ، أن يعرف الرجل ، وأن تعرف المرأة ، الرقص الغربى ، وأن يمارساه بالفعل » ..

وكتب كاتب معروف يقول :

« العفة والبكارة وامثال هذه المفاهيم ، انما هى من علامات التأخر حيثما يتمسك بها مجتمع من المجتمعات » .

وكتب كاتبون فى الجنس بلغة مثيرة متحللة .. وكتب كاتبون فى الايمان ــ بلغة مشككة أو منكرة ــ فى صور تافهة عابرة ، أو فى صور خبيثة محرمة .

وان الغرب ، وان الصهيونية العالمية ، من وراء ذلك كله .. فان من مآربهم التى يعملون عليها أن تنهار الدول الاسلامية من الداخل ، أخلاقيا وعقديا وتشريعيا .. فاذا ما حدث ذلك ــ ولن يحدث ان شاء الله ــ انتهى الاسلام كقوة فعالة فى العالم ، واستمرت

الدول الاسلامية فى تفكك وانحلال ، وتغلبت على المسلمين كل دولة صغيرة ، بل كل دويلة مستعمرة .

ولكن التخطيط الغربى الأمريكي الشيوعى الصهيونى ، لم يكتف بمحاولة اضعاف المسلمين من الداخل .. أو بتعبير آخر : اضعاف المسلمين عن طريق الكيف — وانما أراد — أيضا — اضعافهم عن طريق الكم — أى عن طريق عددهم ، وذلك عن طريق التبشير بالمسيحية .. ويكفى فى ذلك أن نذكر عدة حوادث تبين المدى الهائل من العناية بهذا الجانب ..

١ — ان الثورة المصرية حينما أممت قناة السويس ، وأخذت فى دراسة دفاترها ، وجدت أنه خصص فى ميزانيتها ثلاثة ملايين من الجنيهات سنويا للتبشير بالمسيحية فى بلاد الشرق الأوسط .. قناة حفرت بأيد مصرية ، فى أرض مصرية ، يخصص من دخلها ثلاثة ملايين كل عام لاضعاف شأن مصر والشرق ، دينـــا وخلقا وتشريعا ..

٢ — فى احدى البلاد الافريقية ، جمع الاستعمار خمسة وثلاثين الف طفل ، بوسائل شيطانية ، ونشأهم على المسيحية المتعصبة ، وعلمهم حتى خرج منهم المهندس والطبيب والاقتصادى و .. و .. وحينما ترك الاستعمار هذا البلد .. كان يمسك بزمامه ، وفى مناصبه القيادية ، هؤلاء الذين رباهم على المسيحية المتعصبة ، والذين رسم لهم المنهج الذى يخرجون به أجيالا تلو أجيال تربى على المسيحية المتعصبة ، لتتولى — بالتتابع — زمام الحكم .

٣ — يحاول الاستعمار أن يصل الى أهدافه فى الشرق ، عن طريق الزواج بالأوربيات ، ومن هذا القبيل ما شاهدته بنفسى : زعيم من كبار زعماء المسلمين ، ومليونير تزوج بأوربية جميلة ، فتنته ، وسيطرت عليــه ، ووضعت فى مدخل القصر الفخم الذى تسكنه ، والذى بناه لها زوجها ، وضعت صورة كبيرة للصليب .. وانجبت من هذا الزعيم الاسلامى المليونير ولدا وبنتا .. أما البنت

فقد تزوجت بأوربى مسيحى ، وأما الولد فقد تزوج بأوربية مسيحية .. بعد جيل أو جيلين ستكون أسرة الزعيم المليونى مسيحية بحتة ، وستكون الملايين فى خدمة الاستعمار ..

٤ ـ ان التبشير بالمسيحية قائم على قدم وساق ، فى نشاط لا يفتر ، ومع ذلك ، فاننا نقرأ ـ من آن لآخر ، فى الجرائد العربية : ان التبشير فى افريقيا اخفق .. وانا بنفسى قرأت ذلك عدة مرات .. وتأمل فيما يلى :

لقد تصادف أن جلس احد الأشخاص مع زعيم من زعماء التبشير ، وجرهما الحديث عن التبشير ، فقال الشخص ـ وكان مسلما دون أن يظهر ذلك ـ ولم تتمسكون بالتبشير فى افريقيا ؟.. اننا نسمع من آن لآخر أن التبشير فى افريقيا قد أخفق .. ألا تتطلعون الى أقاليم أخرى للتبشير ؟..

وضحك الزعيم المبشر ، وقال :

اننا نحن الذين ننشر هذه الأخبار ، وننشرها فى مقابل دفع أجرة لها ، وذلك أن التبشير فى افريقيا ناجح كل النجاح ، وبلغ من نجاحه أن أصبح شوكة فى ظهر السودان ، شوكة قوية تقلقه وتضج مضجعه ..

أما اذا أردت معرفة السر ، أو بتعبير ادق ، الحكمة فى نشر هذه الأخبار ، فهاكها :

اننا حينما ننشر هذه الأخبار ، فذلك لفائدتين محققتين :

احداهما : أن المسلمين حينما يقرأونها ، يستمرون فى نومهم قائلين : « وكفى الله المؤمنين القتال » .. فلا ينالنا من جانبهم معارضة أو أذى ..

أما الفائدة الثانية : فهى أن تنهال علينا التبرعات من أغنياء المسيحيين ، لأن المسيحيين ـ أينما كانوا ـ انما يسرهم أن ينجح التبشير ..

٥ ـ بعض البلاد الاسلامية ، التى يبلغ المسلمون فيها ٩٥ ٪ تركها الاستعمار ، وعلى رأسها مسيحى متعصب ، نصبه الاستعمار رئيس جمهورية لها ..

٦ ـ اذا كان فى بلد مسيحى ، جالية اسلامية ، فانها لا تستمتع بالحق الطبيعى للمواطن .. انها لا تدخل الجيش ، ولا تتولى القيادة ، ولا يكون لها نصيب فى التعليم العالى ، وتعيش ذليلة ..

لقد كان أحد السائحين ، فى قطر من هذه الأقطار ، وكان شهر رمضان ، وقدم خادم الفندق الطعام له عند الغروب ، وقال له :

ان أبى مثلك ..

فقال السائح : ماذا تعنى ؟..

فقال الخادم : أعنى أنه يصوم رمضان ..

السائح : وأنت ، لم لا تصوم ؟..

الخادم : أنا « كريستيان : مسيحى » لأنى لو لم أكن « كريستيان » لما نلت هذه الوظيفة ..

لقد بلغ التعصب الى درجة أن وظيفة خادم فى فندق ، لا ينالها الا اذا كان مسيحيا ، فما بالك بغيرها ..

٧ ـ وهذه المذابح التى تحدث للمسلمين فى كل الأقطار ، التى يكون فيها المسلمون أقلية ..

* * *

ماذا فعل المسلمون ؟.. ماذا فعل الستمائة مليون أو السبعمائة مليون مسلم فى العالم من أجل الاسلام ؟..

لا شىء ..

أن كل دولة ، بل كل دويلة فى الغرب ، ترسل ارساليات فى كل اقطار العالم الاسلامية أو الوثنية ..

وفى مقابل ذلك ، لم ترسل دولة اسلامية من يبشرون بالاسلام وهذه البعثات التى تخرج من البلاد الاسلامية الى غيرها ، انما هى بعثات تعليمية .. انها تعليمية بحتة ، حتى لقد خلت من فكرة أن تكون بعثات تربوية ..

انها تعليمية ، تعلم الحساب والجبر والهندسة ، أو تعلم الحروف الهجائية وليس فى أذهان المبعوثين مسألة الدين أو الخلق أو التربية الاسلامية ..

وماذا فعل المسلمون ، حينما قتل أحمدو بللو ؟.. انه قتل لأنه كان صادق الاسلام .. وهذا يعرفه كل شخص .. ماذا فعل المسلمون من أجل هذا الشهيد المسلم ؟.. لا شيء ..

أيها المسلمون !.. ان الله سبحانه سيحاسبكم على السلبية التى تسيرون على نهجها .. أيها الأثرياء !.. يا أصحاب الملايين !.. ماذا انفقتم من أجل الدعوة ..

أيتها الدول الغنية بالبترول ، والتى هيأ الله لها رزقا لم يكدحوا من أجله .. أين ما أنفقتموه من أجل الدعوة ..

ان زكاة البترول الخمس ، هل أخرجتموها فى سبيل الله ؟..

وبعد :

فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ، وان الأمل الكبير فى أن يوفق الله الأمة الاسلامية لاتخاذ طريقه قولا وعملا .. فاذا حققوا ذلك فانهم يومئذ يفرحون بنصر الله ..

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » ..

وان من تباشير التوفيق أن نبدأ ــ فى مصر ــ دولة العلم والايمان ، وهى دولة لنا كبير الأمل فى أن تتخذ خطواتها على أساس من العلم فى كل مجال من مجالات العمل المثمر ، وعلى أساس من الايمان فى مختلف نظم المجتمع ، سواء فى عقائده ، أو فى أخلاقه ، أو فى تشريعه ..

وان من تباشير التوفيق أن تعقد جمهورية ليبيا ، مؤتمر الدعوة ، وأن تخطط فى هذا المؤتمر ، للجوانب المختلفة التى يقتضيها القيام بنشر رسالة الإسلام .. وانى اذا كنت قد وضعت بعض الحقائق الواقعية تحت نظر القراء الأعزاء ، فانما أردت أن أضع مادة لاثارة التفكير فى مستقبل الاسلام ، الذى لا شك فى أنه دين المستقبل ، لأنه دين التوحيد والعدل والأخوة .

الثمن ١٥ قرشا

رقم الايداع ٥٦٣٣/١٩٧١



١٣٩٢ - ١٩٧٢